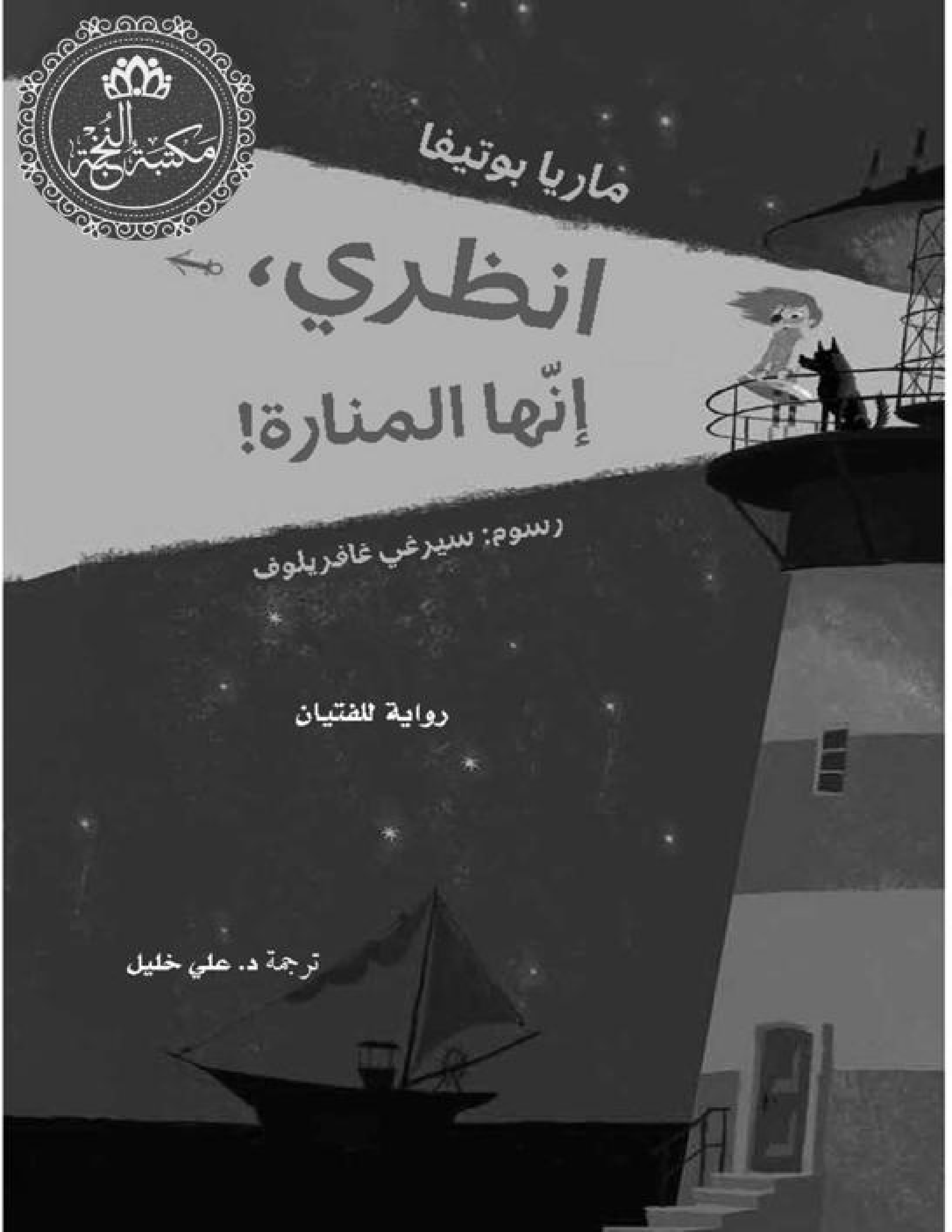
مكتبة النخبة
ماريا بوتيفا
انظري،
إنّها المنارة!
رسوم: سيرغي غافريلوف
رواية للفتيان
ترجمة د. علي خليل

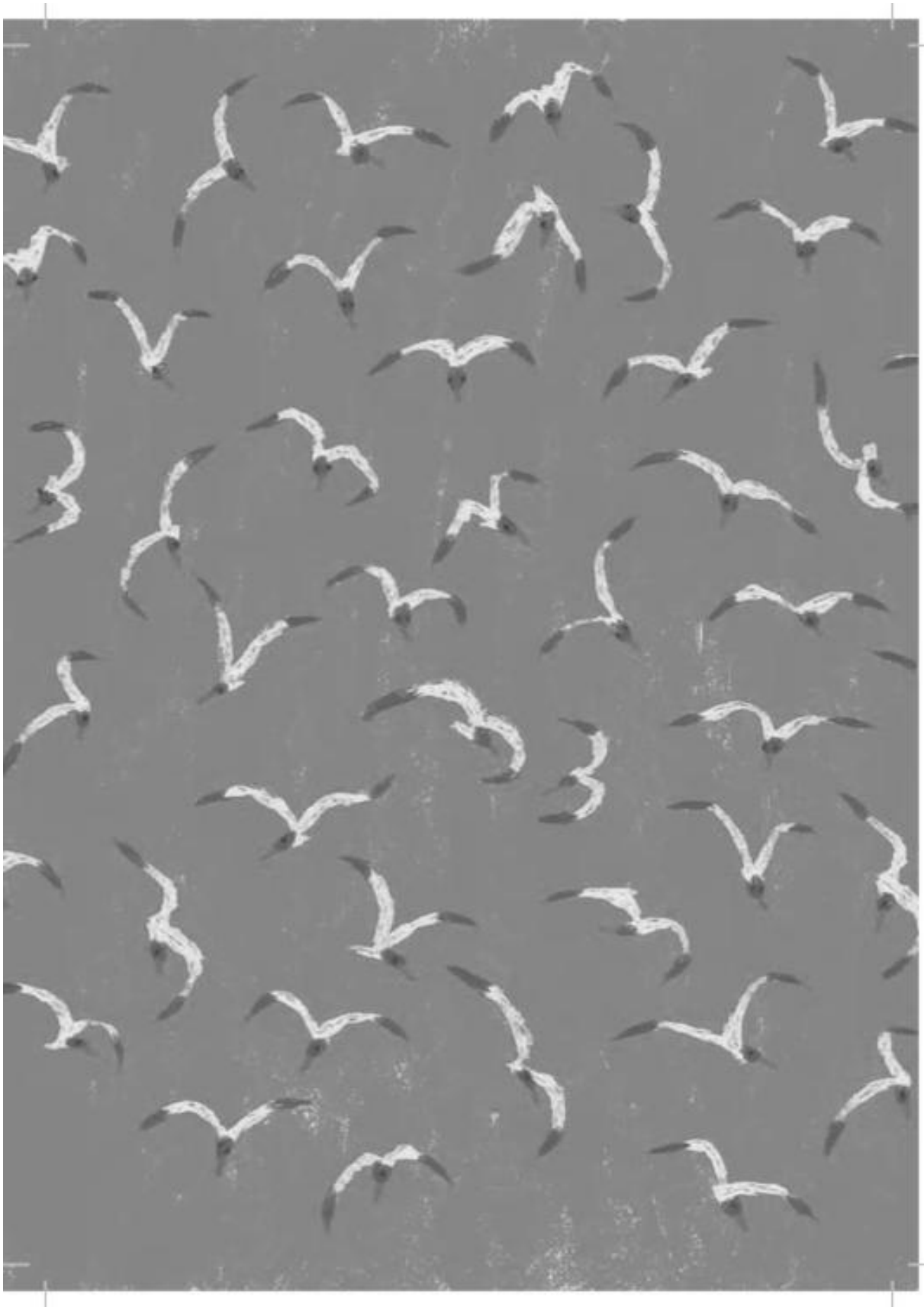

ماريا بوتيفا

انظري،
إنّها المنارة!

رسوم: سيرغي غافريلوف

ترجمة **د. علي خليل**

مراجعة **د. نوفل نيّوف**

© دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي، مشروع «كلمة»

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PZ10.731.B68 Ond 2020

Boteva, Maria انظري، إنها المنارة! : قصة للفتيان / تأليف ماريا بوتيفا ؛ رسوم سيرغي غافريلوف ؛ ترجمة علي خليل ؛ مراجعة نوفل نيّوف. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

٧٣ ص.؛ 16 * 23 سم.

ترجمة كتاب: !Mayak - smotri تدمك: ٧-٩١٩-٣٥-٩٩٤٨-٩٧٨

1- قصص الأطفال الروسية- مترجمات إلى العربية. 2- قصص الأطفال العربية- مترجمات من الروسية. أ- غافريلوف، سيرغي. ب- خليل، علي.

ج- نيّوف، نوفل. د- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي: Original title: Mayak - smotri!

Text © Maria Boteva, 2017

Published with the permission of the KompasGuide Publishing House, Russia

www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: +971 2 5995 579

إنّ دائرة الثقافة والسياحة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الدائرة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّ وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأيّ وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطيّ من الناشر.

انظري،
إنّها المنارة!

الفهرس

الملاّح الباكي	٧
قصة العُصابة	٨
بعين واحدة	٨
الكهرمان	٩
شيء سحريّ	١٠

رسالة في زجاجة ١٢

مراسلات ميخائيل بوريسوفيتش ١٣

أوراق قديمة ١٥

سرير إلزا ١٦

ذئب الخيَال ١٨

القاموس ٢٠

فشلُ الأعمال البحرية ٢١

حديث السفينة مع نفسها ٢٢

إدوين يتواطأ ٢٥

مرض إلزا ٢٧

نداء البطاطا المسلوقة ٢٨

التعامل مع الأمنيات ٣١

كابورياك آخر ٣٢

الحَجْر الصحّي ٣٥

سلام من العمّة تانيا ٣٦

مارتا ومارك فيليب ٣٨

إنها العاصفة.. حتماً ٤١

طبعاً.. عاصفة ٤٢

فقاعات العاصفة ٤٤

صوت من الظلام ٤٥

لقاء لا يسرّ ٤٦

معالجة الحساسية ٤٩

«أنطوني والحلوة نون» يتّجهان إلى البيت ٥٠

قصة قديمة ٥٣

قاموس جديد ٥٤

كُلُّ الناس إخوة ٥٦

ما هذه الرسالة؟ ٥٨

قصة قديمة أخرى ٦٠

إدوين يعود إلى البيت	٦١
كم اسماً نحتاج؟	٦٢
أخيراً.. إدوين يعود إلى البيت	٦٤
من دون مصابيح	٦٥
من عطّل الخفاش	٦٧
المنارة تضيء من جديد	٦٩
كوليك سوروكا يتدبّر مصيره	٧١

الملاّح الباكي

ذات يوم سافر إدوين وبقيت إلزا وحدها. إلى أين ولماذا سافر؟ لا أحد يعلم. ببساطة، في صباح أحد الأيّام رست السفينة «أنطوني والحلوة نون» قرب الشاطئ. وصل إلى الشاطئ ملاح في زورق وأخرج خرائط ملاحية بالية. كان قد أصاب هذه الخرائط بللٌ شديدٌ لدرجة أن الملاحين لم يتمكنوا من معرفة الاتجاه الذي يجب أن يسلكوه. فصعد إدوين إلى المنارة وجلب خرائط إضافية. ولكن الملاح ألحَّ على إدوين أن يرافقهم. فالبحارة على متن السفينة متقلبو المزاج، تارة تراهم سعداء، وتارة أخرى تهبط معنوياتهم إلى درجة قد تدفعهم إلى إتلاف هذه الخرائط أيضاً، من يعلم! في بداية الرحلة، حين كانوا لا يزالون في مينائهم، أغرق البحارة الأوراق قبل بلوغ الميناء الأول، حيث رموا بخريطة البحر في الماء، وأوشكوا أن يكسروا البوصلة.

تشق السفينة «أنطوني والحلوة نون» طريقها، وقد مضى عليها ضعفا المدة الزمنية المقُدرة لها. فانتحب الملاح باكياً، لا يأمل بالرجوع إلى بيته يوماً.

- لي أطفال في البيت. - كان يتكلم ويمسح دموعه عن وجهه، حتى أصابته الحازوقة من شدة النحيب.

- ابنتي مثل ابنتك.

وبالمناسبة، فإن إدوين لم يكن يحب أن يبكي أحدٌ أمامه. وأكثر ما كان يُغيظه هو أن يبكي ملّاح ناضج ومتمرِّس كهذا أمام ابنته، وأن يمسح دموعه بكمِّه بهذه الطريقة أيضاً. زوّد إدوين المنارة بأكبر كمية ممكنة من الوقود والشموع والماء والفواكه المجفَّفة. وبعد مضيّ يوم واحد انطلق في رحلته البحرية على متن السفينة «أنطوني والحلوة نون». قال الملاح إن رحلتهم توشك على الانتهاء، وإن إدوين سيصل إلى بيته بعد شهر إذا هبّت رياح مناسبة.

قصة العُصابة

بينما كان إدوين ينقل الكيروسين والشموع والماء والفاكهة المجففة إلى المنارة، كانت إلزا منهمكة بالبحث عن شيء ما في غرفة المؤن. وقد أمضت وقتاً طويلاً في تفتيش صناديق الأقمشة المهترئة، ولكنها لم تجد شيئاً. وفي النهاية أوقفتْ إدوين، وأخذت من يده وعاء الكيروسين فوضعته على الأرض، ثم سألته عن مكان العُصابة التي يضعها القراصنة على العين عادة. هزّ إدوين كتفيه إشارة إلى جهله بذلك، ومضى حاملاً وعاء الوقود. إلا أن إلزا سبقته صاعدة إلى المنارة، وخطفت وعاء وقود آخر بيديها. فقد كانت مفعمة بحيوية تفوق عمرها. وعندما ظهر الأب عند الباب، أسرعت فثقبتِ الوعاء بمسمار، وبدأ الكيروسين ينسكب على الأرض. سدّ إدوين الثقب بالشمع، وأدرك أن ابنته لن تبقى وحدها من دون عُصابة، وإلا فإنها لن تعتني بالمنارة، وفي أحسن الأحوال ستهدر كل الوقود وتسكبه على الأرض. لم يكن للملّاح عُصابة أيضاً. ومن شدة حزنه كاد أن يبكي مرة أخرى، إذ كادت رحلة إدوين أن تبوء بالفشل، وما من أحد يعلم متى سيصل هو والملاح إلى منزلهما.

أرسل إدوين الملاحَ إلى السفينة، وظلّ مع ابنته ينتظران على الشاطئ. غاب الملاح وقتاً طويلاً، وما إن حل المساء حتى انطلقت مدافع السفينة «أنطوني والحلوة نون» تهدر، وكادت أن تصيب المنارة. عندها تم العثور على عُصابة.

بعين واحدة

حالما رحل إدوين ارتدت إلزا عُصابة حجبت بها عينها اليمنى، أوقد تكون قد حجبت اليسرى، كيف لنا أن نعلم ونحن بعيدون عنها؟ أمّا هي فلا فرق عندها أيّ العينين تحجب. إنها لم ترَ في حياتها سوى إدوين والمنارة. والآن، عندما رحل إدوين، ما حاجتها لكلتا عينيها؟ هكذا فسّرت المسألة لنفسها. بالطبع كانت ترى أيضاً - بالإضافة إلى إدوين - السماءَ والبحر وصديقها الوفي الذئب

كوليك سوروكا. إلا أن البحر كان شاسعاً جداً، لدرجة أن إلزا كانت تعتقد أنها ستراه دائماً وفي جميع الأحوال، حتى ولو بعين واحدة. كما يمكنها سماع صوته دائماً، فهو لا يتوقّف عن الكلام. لذا فالأمر سيّان.

كذلك كانت إلزا ترى السماء طول الوقت، وكانت تبدو لها شاسعة جداً عندما تنظر إليها من أعلى المنارة. «أنظرُ إلى الأعلى فأرى السماء. أنظرُ إلى الأمام فأرى السماء. أنظر إلى البحر فلا أكاد أميز أين الماء وأين السماء». أي أنك لا تستطيع أن تحجب السماء. أحياناً كان يخيَّل لإلزا أن البحر ليس بحراً، بل هو سماء تتظاهر بأنها بحر. ولكن كيف تبحر فيها السفن إذَن؟ كلا، قد يكون ذلك بحراً بالفعل.

أما الذئب كوليك سوروكا، فليس كثيراً ما يمكن أن يُقال عنه. إنه أمام عينيها طول الوقت أيضاً، أو هو بالأحرى يركض عند قدميها دائماً، يقفز نحو الناس ويندسّ بين أيديهم، مثل كلب تماماً. ولكنه ليس كلباً، بل هو ذئب قصير الذيل. ولكنه ذئب في كل ما تبقّى، مع أن إدوين يؤكد طول الوقت أن شخصيته تشبه شخصية إنسان. ولكن من يسمع كلام إدوين الآن، وهو بعيد في البحر؟ إن له شخصية ذئب.

الكهرمان

الآن يجب أن نحدِّثكم أين توجد هذه المرساة. لكن وبصراحة، إن ذلك أمر متعب، إذ نادراً ما يحب أحدٌ أن يحسب خطوط الطول والعرض على الخريطة. دعني أعترف بأن الراوي نفسه لا يريد أن يخوض في هذا أيضاً. يسهل القول إن المنارة موجودة في الشمال، إذ يفهم الجميع حالاً أن إلزا لا تعيش في مصيف، ولكن ذلك المكان ليس أقصى الشمال كذلك، بل هو يقع إلى الأسفل تحت القطب الشمالي ببضع درجات، ويُعدّ أقصى قمة في شمال أوروبا. ليس العيش هناك مستحيلاً، بل إنه معقول أيضاً.

تُطلّ المنارة على البحر، مثلها مثل كل المنارات في العالم. خلفها من الطرف الآخر تمتد غابة. إذا التفتَّ يميناً (أو شمالاً، لا فرق) رأيتَ الغابة تقترب كثيراً من البحر، حتى إن بعض أشجار الصنوبر تلقي بأكوازها وصمغها في الماء، وهذا ما يُكسِب الماء عند الشاطئ رائحة الغابة. كان إدوين يقول إن الصمغ يتحوّل إلى كهرمان مع مرور الوقت. إلا أن إلزا لم تتمكن من العثور على أيّ كهرمان، رغم كل محاولاتها الجاهدة. أيُعقل أن إدوين هو من اختلق هذا كلّه؟ ولماذا؟ عندما يرجع إدوين من رحلته، ستسأله عن ذلك بالتأكيد، وربما لن تسأله، فإلى ذلك الحين ربّما تجد الكهرمان.

كان إدوين يقول إن الكهرمان حجرٌ جميل جداً، هكذا يظهر مرسوماً على صفحات كتابه الذي يتضمّن كثيراً من الرسوم والصور لفلزّات وأحجار كريمة وشبهِ كريمة، كانت جميعها تحظى بإعجاب إلزا، ولا سيّما عندما كانت تعلق الصورة، لأن الأحجار تتألّق حينها، بل ويبدأ بعضها يتلألأ ويطلق الشرر. إلا أنها لم تكن تتبيّن الكهرمان بينها بعد، لأن الأحجار كانت تظهر من دون أسماء.

شيء سحريّ

طولَ حياتها كانت إلزا تريد شيئاً ما... لا يمكن وصفه بكلمات. مجرد «شيءٍ ما»، سحريّ ربما. ولِمَ يجب أن يكون كل شيء عادياً؟ فأشجار الصنوبر عادية، والمنارة عادية أيضاً، مثلما هي المنارات كلّها. البحر، لا شيء مميز فيه، هو بحر كسائر البحار، تارة هادئ وتارة عاصف. ما كان غريباً قليلاً هو الذئب كوليك سوروكا، ولكن من يُثبِت أنه مميز وليس كبقية الذئاب؟ لم تكن إلزا قد رأت ذئباً عادياً من قبل، لذلك فهو في نظرها ذئب عادي أيضاً.

كان البحارة يَحلّون ضيوفاً على إدوين وإلزا أحياناً. فعندما كانت تنتابهم الرغبة بأن يرتاحوا ويمشوا على الأرض، كانوا يلقون المرساة، ويتجهون في مراكبهم إلى الشاطئ. كان الأب يطلب منهم ألا يثيروا ضجةً، فهذه لم تكن أرضهم، وهم فيها غرباء، إلا أنهم كانوا يردّون عليه بالضحك، ويتفوّهون بكلام غريب.

- بيتّي هي بيتّي، - كانوا يقولون، - تسوزامين ترينكِن! بيتّي، إدوين!

في صغرها كانت إلزا تعتقد أن هذه الكلمات سحرية. وأحياناً، بعد سماعها، كان إدوين ينهض ويذهب بصحبة البحارة إلى السفينة. كانت تتمنى أن تتعلم لفظ هذه الكلمات لفظاً صحيحاً. وكانت تردد كلمة «بيتّي» هذه كثيراً. إلا أنها، بعد أن كبرت، أدركت أن هذه الكلمات ليست سحرية، وماهي إلا كلمات أجنبية، لا غير. ففي يوم من الأيام عاد إدوين من السفينة مرِحاً جداً. كان يدور حول المنارة وهو يردِّد: - بارميزان [1]، بارميزان...

ظلَّ يردد هذه الكلمة حتى منتصف الليل، وحتى في نومه كان لا يزال يتكلم عن البارميزان. خطر لإلزا أن هذه الكلمة قد تكون شيئاً سحرياً، ولكنها في الصباح سألت والدها عن معنى كلمة بارميزان، فاكتفى ببسمة لا غير.

«هذا يعني أنه بالفعل شيء سحري، يجب أن أجده بالتأكيد»، هذا ما جال في خاطر إلزا.

رسالة في زجاجة

من أين تأتي هذه المنارات؟ إنه لشيء غامض. هل يبنونها؟ أجل. ولكن مَن؟ هل رأيتم في حياتكم بنّاء منارات؟ أيضاً، لا أحد رآهم. لكأنهم أناس لا تراهم العين.

ذات يوم وصلتْ إلى الشاطئ زجاجة فيها رسالة. كان مكتوباً فيها: عزيزي مشرف المنارة، الأصهب إدوين! مضى وقت طويل وأخبارك مقطوعة عنّي، ومع هذا فإن الأمور تسير على جريِ عادتها. فالرياح تهب، ومقياس الرياح يدور، ولكنّ منارتك الشمالية تفتقر إلى الصيانة منذ سنين. أيُعقل هذا؟ أرجوك أن تتخذ التدابير اللازمة، وإلا دبَّ الخراب والميَلان في البناء الذي في عُهدتك، أو هوى على الأرض.

تحياتي وأشواقي الحارّة،

ميخائيل بوريسوفيتش كابورياك

في ذلك اليوم كان إدوين دائم التفكير بالأمسية التي قضاها على السفينة. كان مستلقياً على فراشه يبتسم ويتمتم بكلمات مبهمة عن البارميزان. وبعبارة أخرى، كان في مزاج رائق. فقد جاءته إلزا بالزجاجة التي فيها الرسالة. وحالما انتهى إدوين من قراءتها وثب واقفاً، وتناول ريشة وورقة برجامين مضادّة للرطوبة (بدهي أن الرسائل البحرية لا تكتب على ورق عادي ولا بقلم حبر عادي) وشرع في كتابة الجواب.

مراسلات ميخائيل بوريسوفيتش

لم أكن أتوقع منك أن تتذكرني، يا ميخائيل بوريسوفيتش! لم ترِدْني إشارة منك منذ سنوات. ولكن الرياح - كما لاحظت- تهبّ، والأرض تدور، وما زالت منارتي صامدة ولا تستدعي أيّ صيانة. تفضّلْ بالمجيء وافحصْها بنفسك. سأكون سعيداً برؤيتك، إن لم تتوارَ عن الأنظار، كالعادة.

مع أطيب التمنيات

مشرف المنارة الشمالية

إدوين

عزيزي إدوين! بتسلم رسالتك هذه، بات واضحاً لي أن طباعك أصبحت أكثر ليناً، بعد محاولتي الأخيرة القيام بزيارة إلى منارتك، وهذا من دواعي سروري.

إلا أن ما يؤسفني حقاً هو عدم تقبلك المستمر لضرورة إجراء أعمال الصيانة التي تتطلّبها المنارة. وكما سبق وأشرت، فإن الأرض تدور والأمواج تتلاطم عند الشاطئ، في حين أن المنارة تهرم. أرجو منك أن تهيّء لمجيئي زورقاً آمناً، وقناعاً من الشاش، ومكبرَ صوت.

ميخائيل بوريسوفيتش كابورياك

عزيزي ميخائيل بوريسوفيتش الذي لا تعوزه الطيبة! كيف حالك؟ ألا تريد أن تضع كل أشغالك جانباً وتنطلق في إجازة؟ هل زالت تلك الكدمات التي سببتُها

МАЯК
МАЯК

لك عندما حاولتَ المجيء إلى منارتي المرة الماضية؟ أنت على حق، فالأمواج تتلاطم، وتظهر على الأرض آثار مدٍّ وجزْرٍ، أما منارتي فإنها صامدة، وفي غنى عن خدماتك. ومع ذلك، تفضّل بالمجيء، ولكن خُذْ بعين الاعتبار أني لا أملك قناعاً من شاش ولا مكبّر صوت. وبالنسبة للزورق، فإنه في الخدمة دائماً. سأنتظر زيارتك بفارغ الصبر، ولكن عليك أن تفهم ما يلي: إذا حاولت أن تتخلص من ألاعيبك، سيكون اللقاء حافلاً أكثر مما في المرة الماضية.

صديقك إدوين

عزيزي إدوين، أشكرك على هذا العرض. أنا قادم إليك.

كوبوراك

أوراق قديمة

تذكّرتْ إلزا قصة ميخائيل بوريسوفيتش وهي جالسة على سُلَمِ المنارة. لقد مضى أسبوع على رحيل إدوين، وبدأت تفتقده. بدت لها السماءَ رمادية على غير العادة. كلا، كانت السماء تكتئب أحياناً، ولكن ليس إلى هذه الدرجة، بالطبع! كان البحر بارداً جداً. وأشواك الصنوبر بدت في غاية الحِدّة. وكان الذئب كوليك سوروكا يتبع إلزا كخيالها، يدسّ أنفه في كفّها، ولكن هو أيضاً لم يتمكن من تخفيف شدة كآبتها. عندها نزل إلى القبو، ثم عاد إلى إلزا ومعه سلّة قديمة. كانت مراسلات إدوين وميخائيل بوريسوفيتش محفوظة في هذه السلة. جلست إلزا على الدرج وبدأت تقرأ. يبدو أن ميخائيل بوريسوفيتش كان يقتصد بورق الكتابة، إذ كان يرد على رسائل إدوين على الوجه الآخر من الرسالة. وهكذا بقيت كل المراسلات محفوظة.

إلا أن السلة كانت تحتوي كذلك على الكثير من الأشياء الطريفة الأخرى. فقد وجدت إلزا فيها صحفاً قديمة، وبرامج مسرحية، وصفحات كتب ممزقة. أمر غريب، ما الذي جعل إدوين يحتفظ بكل هذا؟ إذ لا تذكر إلزا أنه كان يقرأ في يوم من الأيام. إلا أن أكثر ما كان يَلفت انتباهها في محتويات السلة هو صورة إدوين القديمة. كان مشرف المنارة في الصورة يافعاً، تبدو نظرته أكثر مرحاً. ولحيته كانت ممشطة بعناية. لقد أهملها الآن، أما في الماضي فقد كان يمكث طويلاً أمام المرآة، يمشطها ويشذّبها. كان إدوين الذي في الصورة يحمل بين يديه رضيعاً، ويبتسم ابتسامة عريضة. يا للعجب، من يمكن أن يكون هذا؟ - تساءلت إلزا في سرّها. وإلى جانب إدوين يقف صبي صغير وامرأة جميلة، كانت تمسك بيدَي الصبي ومشرف المنارة، وتبتسم أيضاً.

أمضت إلزا اليوم بطوله وهي تفكر في مَن عسى أولئك أن يكونوا، ولكنها لم تتوصل إلى نتيجة. «يجب أن أستفسر عن هذا بالتأكيد»، – جال في خاطرها واستسلمت للنوم حالاً. وتكوّر كوليك سوروكا إلى جانبها.

سرير إلزا

لا أحد يملك سريراً مثله، بالتأكيد. لقد صنعه مشرف المنارة إدوين لابنته بنفسه. كان سرير إلزا عاديّاً في ذلك الزمن، شأنه شأن أسِرّة بقية الأطفال، وهولا يزال محفوظاً في القبو. كانت البنت تنام فيه مع الذئب كوليك سوروكا. إلا أنه لم يعد يتّسع لهما بعد أن كبرا. فأمضت إلزا فترة من الزمن كانت خلالها تنام في الأرجوحة الشبكية، أو في الحقيقة، لم تنَمْ فيها إلا ليلة واحدة فقط، ريثما صنع إدوين لها سريراً جديداً. ولكنْ، يا لها من ليلة! كانت صاحبة السرير معلّقة عالياً، قريباً من السقف، بينما كان كوليك سوروكا يطلق هريراً بصوت خافت على الأرض. لقد افتقدها كثيراً. كان بإمكانه أن يعوي بملء صوته، إلا أنه كان يهاب إدوين الذي لم يكن يحب أن يعوي أحد.

لم يكن موجوداً في غرفة الفتاة سوى سرير ضخم وكرسي كانت تعلَق عليه ملابسها ليلاً. ولا تتسع الغرفة لأي شيء آخر. وكانت تلك الأرجوحة الشبكية نفسها منصوبة تحت السقف، إلا أن إلزا لم تعد تصعد إليها لكيلا يقلق كوليك سوروكا. يبدأ السرير من عند العتبة، فتصعد إلزا إليه مباشرة.، ولم يكن للسرير قوائم فهو صندوق خشبي

كبير فحسب، ليس فيه إلا فرشة وأغطية سرير. وكانت إلزا صغيرة الحجم، بينما كان السرير ضخماً يكفيها لأن تمشي وتقفز وتلعب عليه ما طاب لها اللعب، ومن دون أن يوبّخها أحد على ذلك.

تنام إلزا حيثما تشاء، تارة بالقرب من الباب، وتارة أخرى إلى جانب الشبّاك. ولكن الذئب كوليك سوروكا اعتاد أن ينام قرب الحائط دوماً، لأنه جبان ويهاب المخاطر. لعلّه يشعر بالأمان هناك، أو بأنه في حماية إلزا بهذه الطريقة. ولكنْ، من ذا يعرف ما تفكر به الذئاب...

ذئب الخيَال

قررت إلزا في أحد الأيام أن تعرف ما تفكر به الذئاب بعد طعام الغداء. فجأة داهمتها هذه الرغبة. حدث ذلك عندما رحل إدوين على متن السفينة «أنطوني والحلوة نون». فبعد أن تناولت طعام الغداء مع الذئب كوليك سوروكا، لم يكن هناك ما يفعلانه.

ولكي تستوضح هذا السرّ، دارت حول الذئب ثلاث مرات، فشدّته من شاربيه، وألقت نظرة إلى شِدقيه، وأمسكت يديه بالتناوب، ومسحت أنفه البارد براحة يدها، وداعبت ذيله، ورفعت الوبر على ظهره، ونفخت عدة مرات في عينيه، ثم أغمضتهما براحة يدها. كان كوليك سوروكا في هذه الأثناء يتنهّد، ويلعق فراءه، ويشيح بوجهه بين الحين والحين، من دون أن يقول شيئاً. كان صامتاً طول الوقت، إلا أن صمته في ذلك اليومَ كان غريباً. ظنّت إلزا أن الذئب يريد أن يخبرها بشيء، ولكنه لا يعرف كيف. دارت حوله مرة أخرى، وهنا شعرت بأن كوليك سوروكا خائف من أن تقرأ أفكاره وتعرف سرّه. فما الذي يخيفه، يا تُرى؟ وما هي الأسرار التي قد تخفيها الذئاب عن الناس؟ لا توجد أسرار البتة. هذا ما اعتقدته إلزا، إلا أن خوف كوليك سوروكا من أن تكشفه كان يتزايد، فأخذ يخفض رأسه الأشعث أكثر فأكثر، ويواري نظراته، محاولاً أن يعض على شاربيه، وكأنهما يُخفيان سراً.

«لعلّه يجب علَيّ أن أتوقف عن استجوابه؟»- جال في خاطر إلزا، فقالت بصوتٍ عالٍ: - كوليك، اجلب لي من فضلك سلة الأوراق.

وتظاهرت بعدم المبالاة، عسى أن يصدقها كوليك سوروكا ويفشي لها سره من دون قصد؟ تنهّد الذئب بصوتٍ خافت، وذهب إلى القبو. لم تكن تنهيدته تدل على أي شيء غير عادي. ولم يكن كوليك سوروكا يحب أن يناديه أيُّ شخص بغير اسمه الكامل. أما إلزا فكانت في معظم الأحيان تكره أن تقول كلمتين حين تؤدّي الغرضَ كلمةٌ واحدة. لذلك كانت تناديه مكتفية بـ كوليك أو سوروكا فقط، وَفقاً لما يمليه عليها مزاجها. إن كان سيّئاً، كما هو الحال الآن، تناديه إلزا الصهباء بـ كوليك، وحين تكون بمزاج جيد، تناديه سوروكا، أو العكس؟ لا أذكر الآن متى يصبح اسم الذئب كوليك، ومتى إن كانت مبتهجة تناديه باسمِ سوروكا. أو ربما العكس. فهو نفسه لم يعد يفرِّق بين هذا النداء وذاك، فكانَ في جميع الأحوال يكتفي بالتنهّد كلَّ مرّة، حتى عندما يسمع اسمه كاملاً.

جلب الذئب السلة، فوضعها عند قدمَي مربّيته، واستلقى إلى جانبها بهدوء ناظراً إليها بعينين حزينتين.

- لا تزعل، لا تزعل، يا كوليك سوروكا، أحسنتَ! - قررت مربيته أن ترفع معنوياته، فنادته باسمه الكامل. كانت تعتقد أنها ستجعله يشعر بمزاج حسن وينظر بفرح، إلا أن ذلك لم يفضِ إلى أي نتيجة. «حسناً، ماذا لدينا هنا؟». وشرعت تتفحّص الأوراق. تجدر الإشارة إلى أنها كانت في ذلك الوقت قد حفِظتْها عن ظهر قلب. ففي الأعلى، كانت توجد مراسلات إدوين مع ميخائيل بوريسوفيتش، تليها برامج مسرحيةٌ وصفحاتُ كتب، ثم تأتي صورة إدوين بصحبة طفلين وامرأة. وأكثر ما كانت تحب أن تفعله إلزا هو تفحص هذه الصورة. إلا أنها، لسبب ما، لم تكن موجودة هذه المرة.

استمرت بالبحث عن الصورة حتى هبوط الليل. راحت تدور حول المنارة، وتركض باحثة في الغابة. ثم صعدت إلى الأعلى، وفتّشت جميع الغرف، ورفعت أغطية الطاولات. وفي المطبخ فتحت جميع العلب ونظرت داخلها، إلا أنها لم تعثر على شيء.

في الليل، وهي في سريرها، عثرت على الصورة تحت وسادتها. كان ظاهراً على الورقة ثقوبٌ وآثارُ أنياب ذئب. نظرت إلزا إلى الذئب بكل ما أوتيت من حزم، ثم ضمّت الصورة إلى صدرها واستسلمت للنوم، من دون أن تلحظ نظرة العطف التي كانت تترقرق في عيني كوليك سوروكا.

القاموس

كان القاموس كتاب إلزا المفضَّل. لقد أحبّـته عندما بقيت وحدها مع كوليك سوروكا في المنارة. كانت تُمضي أيامَها كلّها وهي تتجوّل على الشاطئ، وتصطاد الأسماك، وتقرأ الكتب. ولكن في الحقيقة سرعان ما أضجرتها هذه الكتب. فإلى متى يمكن أن تعيد قراءة الشيء ذاتِه؟ لم يكن هناك غيرُ خمسة كتب سميكة وكتاب واحد رقيق جداً. إلا أن القاموس لم يكن يضجرها أبداً. بالطبع، ما إن تحفظ معنى كلمة «مدينة» مثلاً، حتى تكون قد نسيت معنى كلمة «عادي» أو «تاريخ». وعندئذ يتعيّن عليك أن تعيد قراءتهما. وبينما أنت تبحث عنهما في القاموس كلِّه، تصادف الكثير من الأشياء الجديدة الأخرى. إلا أن القاموس، للأسف، لم يكن يحتوي على أيّ شيء له علاقة بالبارميزان. على الرغم من أنها كلمة مشهورة، يردِّدها جميع البحارة، إنما لا وجود لها في القاموس. كانت الحروف والكلمات تظهر كلّها في القاموس بطريقة مميزة، بمعنى أنها لم تكن أحسنَ أو أسوأَ ممّا في أي كتاب آخر، ولكن عندما تتأملها جيداً، لا يمكنك أن تشيح بنظرك عنها. عندما كانت الفتاة تأخذ الكتاب، كان كوليك سوروكا يذرع المكان جيئة وذَهاباً بقلق. كان يعلم أنه لن يكون من السهل عليه أن يجعلها تصعد إلى المنارة لتشعل أضواءها. وفي أحد الأيام خلبتِ القراءة لبّ الطفلة الصهباء مشرفةِ المنارة حتى كادت أن تنسى كلَّ شيء حولها: البحرَ والذئب وإدوين.

فشلُ الأعمال البحرية

حان الوقت لكي نعود إلى الأصهب إدوين الذي أصابه الحزن على متن السفينة. كان البحارة على متن «أنطوني والحلوة نون» إمّا في مزاج صاخب للغاية، أو في مزاجٍ بائس للغاية، ولم تكن هناك أي فائدة في كلتا الحالتين. فعندما يكون مزاجهم حســناً يقومون بأعمالهم، يغنون ويرقصون، ويرسمون،

فيما ينظر بعضهم إلى الأفق ويحدِّقون بشيء هناك. أما حينما يكونون في مزاج سيئ، تنعدم عندهم الرغبة بالقيام بأي شيء. لقد كانوا يقضون وقتهم بالنوم حيناً، وبتنظيف ظهر السفينة حيناً آخر، أو بغسيل قمصانهم الداخلية المخططة. فيما كان بعضهم الآخر يكتفي بالنظر إلى شيء يراه في الأفق. كانت السفينة تمخر البحر ببطء شديد، حتى كان يُخيل أنها ساكنة في مكانها لا تتحرك. وأحياناً، كلَّ يومين تقريباً، كان قبطان السفينة يخرج من قُمرته فينظر إلى البحر ويقول ببطء: الناس ينتظرون ما نشحن من بضائع. أجل، لا غنى لهم عن بضائعنا. - وينصرف.

حاول إدوين المسكين أن يكون في كل مكان، فكان يرفع الأشرعة، وينزل إلى قسم تشغيل الآلات، ويدير عجلة القيادة، ويراقب ارتفاع منسوب المياه. ولكن ماذا عساه أن يفعل وحده؟ فالملاح الذي ناداه إلى متن السفينة كان بكاؤه يزداد قوة يوماً بعد يوم، وما كان يبقى لمشرف المنارة إلا أن يراقبه متعجباً من أين لإنسان كلُّ هذا القدْر من الدموع!

تجدر الإشارة إلى أن سلوك السفينة لم يكن أفضل حالاً، فقد كانت تُمانع حتى عندما يعمل كل أفراد طاقمها معاً جاهدين. فمثلاً، عندما كان أحدٌ بينهم، ممّن لا يزالون يحتفظون بالصحة والنشاط، ينبري ليدير عجلة القيادة وتوجيهها إلى الجنوب/ جنوب غرب، كانت السفينة تتجه إلى الجنوب الغربي فقط، وليس إلى الجنوب/ جنوب غرب، بأيّ حال من الأحوال مطلقاً! فيتعكّر مزاج الطاقم... يا للخيبة!

حديث السفينة مع نفسها

كان قد مضى على رحلة إدوين على متن السفينة «أنطوني والحلوة نون» أسبوعان حتى الآن، واشتدّ به الشوق إلى ابنته كثيراً، لكن اليابسة لم تظهر بعد. وذات ليلة أصابه الأرق، فيما كان البحارة، على العكس من ذلك، نائمين طول اليوم، ومن لم يكن منهم نائماً، كان يتململ بين اليقظة والنوم. كان

البحارة يرقدون من دون حراك، أو يأتون بما يشبه الحركة. وقد حاول مشرف المنارة طول اليوم أن يحثهم على النشاط: فراح يُدلِّك بعضهم، ويشدّ بعضهم الآخر من أذنيه (بالمناسبة، هذه طريقة فعالة جداً لمن يريد أن يوقظ أحداً)، ويأخذ بيد بعض آخَرَ ماشياً على ظهر السفينة حتى حافّتها، ثم يتظاهر بأنه يريد أن يلقيه في الماء، لكي يجعله يخاف ويُفيق. ولم يكن شيء من هذا كلّه يُجدي نفعاً، لا جرسُ الإنذار العالي، ولا القهوة المركّزة. كان الجميع يظلون نياماً.

كان إدوين جالساً على ظهر السفينة في الليل، عندما تناهى إلى سمعه فجأة صوتُ امرأة حادّ. كان الصوت آتياً من ناحية السارية.

- لا يمكن أن يستمر هذا الوضع طويلاً. - قالت بصوتها الحادّ. لقد حان وقت الرجوع إلى البيت. وإلا فإنهم سيدمّروننا. كان القبطان اليوم، من شدّة مللِه، يعبث بثقب في الزورق غيرَ آبهٍ لخطورة ما يفعل.

- ولكننا لا نستطيع الرجوع إلى الميناء، كما تعرفين. - ردَّ من مكان مجهول صوتٌ كأنه صادر من الأنف. وخُيِّل وجودُ ما يشبه أصواتِ ريح تحاول أن تُفلِت من أسْرِ حبالٍ ثخينة مشدودة بقوة، - «إنهم سيفرقون بيننا على الفور».

- من قال لك هذا، مَن؟ ولماذا قد يفعلون ذلك؟ - صرّتِ السارية بعناد.

- هذا ما لا أعرفه. – خنّ الصوت قليلاً عبر الأنف. - «تذكري كم غضب الأدميرال عندما علم أن لنا اسمَين. لقد قال حينها إن لجميع السفن أسماءَ سفن: «أغيديل الأولى» مثلاً، أو «يوريزان بيلوياروفيتش»، أجل، أو «شبحُ عِلْم الدلالة»، في نهاية المطاف! أمّا «أنطوني والحلوة نون»! ما هذا؟ لم يكن ينقص إلا أن تسمّوها «روميو وجولييت»! يجب القضاء على هذه الأسماء في المستقبل. هكذا قال.

- ولكن، يا عزيزي أنطوني، لن يحدث هذا مطلقاً، فأنت وأنا وحيدان من نوعنا.

- كلا، أنتِ هي العزيزة والحلوة نون، أمّا أنا فلا أسمح بأن يناديني أحد هكذا. نحن وحيدان من نوعنا، بالطبع، ولكن ينبغي علينا أن نتوخّى الحذر. إننا لن نتوجّه إلى الميناء.

هكذا إذاً! لقد تبيّن أن إدوين سمع بالصدفة حديث أنطوني و«الحلوة نون». فبينما هو يفكر ويتعجب ويتساءل عمّا إذا كان من اللائق أن يتنصّت على حديث السفينة مع نفسها، كانت السفينة تفكّر بأفضل طريقة لتبقى في البحر، وكيف تستطيع أن تزيد إرباك الطاقم. بالطبع، يجب عليه أن يكون أكثر انتباهاً،

كان يعي ذلك، إلا أن كثيراً من الأمور المهمة قد فاته. وفجأة سمع «أنطوني والحلوة نون» يتحدثان عنه.

- ولكن يجب علينا أن نتوخّى الحذر، – خنّ «أنطوني» من أنفه -، إن هذا الأصهب يُفسد علينا كل شيء. لقد كان اليوم على وشْك أن يوقظ نصف الطاقم، وهذا كثير! ليس عبثاً أنْ جاء به الملاح إلى السفينة، ليس عبثاً! من المؤسف أنه تم العثور على عُصابة العين، فأين كانت؟

- لقد قصّها أحدهم من مئزر طباخ السفينة. كانت وسخة جداً لدرجة أن قماشها بدا أسود اللون.

أخذ إدوين يتنفس بهدوء أكثر فأكثر وهو ينصت، علّه يسمع شيئاً مفيداً. وهذا ما حدث فعلاً.

- عموماً، أشعر بالشفقة عليه. - همست الحلوة نون بحدة. - فالمسكين يعيش من دون حبيبته منذ عدة سنوات، هل تستطيع أن تتخيّل ذلك؟

- ماذا تقولين، ماذا تقولين! – خفّت خنّة أنطوني قليلاً، كأن الريح قد أفلِتت أخيراً من الحبال. - لا أريد حتى أن أفكر بذلك. أنتِ على حق، بالطبع! إني أشفق عليه.

- ولكن لماذا لا يبحث عنها؟ هل كنتَ أنت ستبحث عني؟

- لا تقولي هذا، إنك تمزقين قلبي. لا أستطيع حتى أن أتخيّل أن نفترق. لذلك لا أريد الرجوع إلى الميناء.

- ولكن كلما طالت رحلتنا طال فراق الملاحين عن عائلاتهم.

- ماذا عسانا أن نفعل؟

إدوين يتواطأ

حالما سمع الأصهب إدوين ما يقال عن زوجته التي كان «أنطوني والحلوة نون» يتكلمان عنها، تلك التي لم يعد مشرف المنارة يبحث عنها منذ سنوات، شعر أن قلبه بدأ يتمزق إرباً أيضاً. لقد سمع على الأقل بأن شيئاً ما يتصدّع في صدره، لكأنه مئزرُ طباخ يمزقونه لعُصابات العيون. وقبل أن يفقد وعيه، استطاع أن يدرك أن صوت القلب شبيهٌ بصوت مئزر متّسخ.

ثاب إدوين إلى وعيه لأن أحدهم كان يرشّ ماء البحر في الليل على وجهه. كانت الأمواج تتلاطم خارج السفينة، والنجوم تتلألأ فوق رأسه، وكان متن السفينة يتأرجح بهدوء تحت تمثال ذئب الشواطئ العجوز. لسبب ما جال في خاطره تلك اللحظةَ: ذئب الشواطئ العجوز. لا بدّ أنكم تتذكرون الذئب كوليك سوروكا. ذلك هو الذئب الحقيقي. لكن الناس، للأسف، لا يطلقون على الحيوانات عادة هذه الصفة: ذئب الشواطئ العجوز، أو ذئب البِحار العجوز. لقد

وُضِعت هذه الصفات للبشر حصراً. أضِف إلى ذلك أن الوقت قد توافر لإدوين الآن لكي يفكر بنفسه أوّلاً.

لم يكن يرى بوضوح دائماً، بل أحياناً، مَن كان يرشقه بالماء، ومن كان يتكلم. فحيناً يَخال أن أنطوني ينحني عليه. وبعد قليل لا يعود يراه. أمّا الحلوة نون، فلم يستطع أن يجزم أبداً إن كان يراها أم لا. فقد كانت كالوميض تختفي تارة، وتارة تتلاشى، ثم تعود للظهور برهة قصيرة هنا وأخرى هناك. على الأقلّ كان بجانبه أحد ما، وكان يشعر بذلك. كان أنطوني يبدو لذئب الشواطئ العجوز بديناً، جميلاً وذا شعر مجعَّد قليلاً. وكان بوسعه أن يقول عن الحلوة نون فقط إنها أيضاً حلوة، بل وساحرة كذلك، ولا سيّما عيناها الزرقاوان الصافيتان الواسعتان. ولكنه كان مستحيلاً قول أي شيء أكثر تحديداً عن اسم السفينة.

ما القميص الداخلي الذي كان يرتديه أنطوني وهو ينحني، وهل كان يمسك بشيء في يده أم لا؟ هل كان لدى الحلوة نون مروحة يد أو عقد ما؟ ذلك ما يبقى لنا أن نخمّنه فقط.

- أين زوجتي مارتا؟ - كان هذا أول سؤال يطرحه إدوين عندما توقفوا عن رشقه بالماء.

- ليست على الإطلاق في المكان الذي نتجه إليه الآن. - أجابه أنطوني.

- أجل، أجل، ليست هناك بالفعل. - أكدت الحلوة نون.

- اتّجِهوا نحوها إذاً، نحوها! - صرخ إدوين. – وحالاً! - كان بالفعل ينوي الذهاب للبحث عن زوجته من دون إبطاء.

- وماذا عن الطاقم، وعن ابنته، وعن الملاح؟ - كاد هذا السؤال أن يُفسد الأمر برمته على الحلوة نون. غرق ذئب الشواطئ العجوز في أفكاره طويلاً. حقاً، كيف يُخيِّب أمل الطاقم، وكيف يتحمل دموع الملاح كل يوم؟ لم تكن لدى إدوين أيَّ أجوبة. فأنقذ أنطوني الموقف: - عزيزتي وحلوتي نون، نحن في جميع الأحوال نجول الآن دونما هدف، ولا نتجه إلى الميناء. هل يهم إلى أين نتجه؟ المهم أن نبقى بعيدين عن شاطئنا. أضيفي إلى ذلك أننا لم نبتعد كثيراً، وفي أسوأ الأحوال سيكون بوسع الملاح أن يصل إلى بيته مشياً خلال يومين.

- إياكم أن تقولوا شيئاً أمام الطاقم والقبطان، وخاصة أمام الملاح! – حذّرت الحلوة نون الجميع، ولم يكن إدوين يتوقع أن يسمع هذه النبرة الآمرة في صوتها الحاد.

بهذه الطريقة تواطأ مشرف المنارة الشمالية مع السفينة «أنطوني والحلوة نون».

مرض إلزا

إلزا مريضة دائماً. هل تعلمون ذلك؟ أجل، إنها مريضة طول الوقت، ثمة دائماً شيء ما ليس على ما يرام. إما سنٌّ يسقط، أو كدمات زرقاء على ركبتها، أو ما هو أسوأ من ذلك، حين يخفت صوتها فجأة ويختفي، من دون ألم في الحلق، وتظلّ حرارتها طبيعية ومستقرة، فقط يختفي صوتها. أو فجأة، يتحول نمَشها إلى لون أبيض. وهذا مرض مزمن عند إلزا. يختفي نمشها كل شتاء، ويعود للظهور في الربيع، إلا أن إلزا لا تولي ذلك اهتماماً على الإطلاق. كان إدوين كلما مرضت ابنته إلزا يظل عدة أيام يتململ ويدور حولها، ويمشي على رؤوس أصابعه خشية أن توقظها أنفاسه.

يحدث هذا كله لأن إلزا سبق أن مرضت بشدة في أحد الأيام، عندما كانت رضيعة. في البداية كان يختفي نمشها، ثم صوتها. ثم يظهر عليها طفَح جلدي وترتفع درجة حرارتها. وتبقى عدة أيام مستلقية، تتحرك بالكاد.

- لم يكن إدوين يعرف ما ينبغي عليه فعله. ولسوء الحظ لم يقترب أحد من الشاطئ ليرسو. كان الأفق خالياً من الغيوم، صافياً. ومن نكد الحظ كان لا بد من إشعال ضوء المنارة كل مساء، فيما كان الأب يخشى الابتعاد عن ابنته ولو إلى الطرف الآخر من الغرفة.

عندها ظهر الذئب كوليك سوروكا. فقد خُيِّل له أنه سمع وهو في الغابة بكاء إلزا الصغيرة بصوت مكتوم، وتنهُّدَ إدوين من الألم. جاء الذئب في اللحظة التي هوت فيها إلزا عن سريرها. لم يرَ حارسُ المنارة ذلك، إذ كان منهمكاً بإصلاح عطْل في مصباح المنارة، لا يرفع ظهره. واستطاع كوليك سوروكا أن يلتقط إلزا قبل أن تسقط على الأرض. فرفعها بحذر من قماطها بأسنانه، وصعد بها

ووضعها عند قدمي إدوين. ثم ركض وجاء ببطانية غطى بها الطفلة الرضيعة. راقب حارس المنارة كل ما كان يحدث وهو صامت، إلا أن صوته اختفى من الخوف، وكذلك صوت الطفلة. واشتعل ضوء المصباح من تلقاء نفسه. ووضع إدوين ابنته إلزا في الفراش فغطّت في النوم سريعاً، ثم دنا من الذئب فعانقه وانخرط بالبكاء. ومن يومها أصبح الذئب كوليك سوروكا يعيش في المنارة.

بعد هذا الحادث، ازدادت خشية مشرفِ المنارة، الأصهبِ إدوينِ على صحة ابنته إلزا. وأصبح ما إن تعطس الطفلة حتى يهرع إليها بسرعة البَرق فيحملها ويضعها في الفراش، ويقدم لها مربّى ديس الشمال. نود القول إن إلزا ليست مريضة تماماً، إلا أن لإدوين رأياً آخر، فحْواه أوّلاً: أن هذا ما يبدو لنا، وثانياً، أنه أدرى منا، وثالثاً، شيء جيد أنها ليست مريضة، ويجب الحرص باستمرار على بقائها في صحة جيدة.

نداء البطاطا المسلوقة

شعرت إلزا الصهباء بملل شديد، فقد أنهت قراءة جميع الكتب، حتى أنها ملّت من القاموس أيضاً. وبالأحرى، زعلت منه قليلاً. فقبل وقت قصير صادفت فيه كلمتي «وحيد» و «وحدة». إنهما كلمتان لا تدعوان للفرح إطلاقاً. بصراحة، هذا ما لم يعجب إلزا. وقد أدركت أيضاً أنهما تنطبقان عليها. فالوحدة موجودة عندها في المنارة، وهي وحيدة. بالطبع، كان الذئب الوفي كوليك سوروكا إلى جانبها دائماً، فلم تكن وحيدة. ومع ذلك، مع ذلك... كيف لها أن تتحدث مع ذئب؟

طبعاً، يمكنها أن تتحدث إليه اليوم بطوله، إن أرادت. يمكنها أن تحدِّثه عمّا تراه، أو أن تقرأ له أبياتاً من الشعر، إلا أنه لن يكون في مقدوره أن يجيب! وهذا ما لم يرُقْ لإلزا على الإطلاق.

جلست إلزا في أعلى المنارة قريباً من الضوء، وأخذت تنظر إلى البحر بعين واحدة، فتذكرت فجأة أن إدوين يحب البطاطا المسلوقة. كان إدوين نفسه

أحياناً يسلق

МАЯК
МАЯК
СЛОВАРЬ

البطاطا، ويأتي بالفطر المملّح من القبو، لا يحب أن يشاركه العملَ أحد، بل ويمدّ السفرة على الطاولة، مع أنه كان لا يطيق ذلك في الأيام العادية. كانت إلزا تعرض عليه المساعدة، ولكنه يرفض. كان يبدو للطفلة إلزا أن إدوين لا يكون على طبيعته في هذه الأمسيات، وكأن شعره أكثرُ حمرة من المعتاد. كلا، كان هناك شيء آخر، فهو يصبح ثرثاراً جداً في مثل هذه الأوقات؛ يكاد لا يغلق فمه، لا تعرف متى يأكل. وأحياناً أخرى يصبح على العكس من ذلك، صامتاً تماماً، بالكاد يتفوّه بكلمة واحدة. يكون مختلفاً، ولكنه قريب جداً من القلب. بدأت إلزا تتنهد، تكاد تنفجر بالبكاء من شدة الوحدة والحزن.

جاءها كوليك سوروكا بعد أن سمعها تتنهد، فهو يسمع أي شخص يكون حزيناً أو يشعر بسوء، مهما كان حزنه خافتاً. دسَّ الذئب رأسه تحت يد الفتاة كي تداعبه، لكن إلزا لم تُعِره اهتماماً، فأتى إليها من مكان ما بحبّة بطاطا وضعها إلى جانبها وانصرف، ثم جاءها بحبة أخرى، وبالكثير من البطاطا، ما جعل إلزا الصهباء، في نهاية المطاف، تتوقف عن الحزن والتنهد، فتأخذ سكيناً وقِدْراً، وتعقد مئزرها وتبدأ بتقشير البطاطا. وبينما كانت تزيل البراعم عن حبات البطاطا وتقشِّرها، ثم تغسلها وتضعها على النار، داهمها إحساس بشيء غريب. فجأة شعرت بخفة كبيرة، وانتابتها رغبة كبيرة بالكلام عن كل شيء، عن الأفق الهادئ وعن كوليك، وعن سوروكا. ثم انتابتها رغبة بالضحك. لكنها في الوقت ذاته أرادت أن تَنعَم بالهدوء، وأن تداعب كوليك سوروكا، إلا أنه اختفى فجأة، فكيف تناديه من دون أن تكسر الصمت؟ إلا أن أكثر ما أرادته إلزا هو أن يعرف إدوين أن البطاطا المسلوقة قد أُعدّت من أجله، وأن تظهر السفينة على الفور، وأن يأتي والدها إليها حالاً. فكيف له أن يفوِّت وجبة لذيذة كهذه؟ بوسعه أيضاً أن يصطحب معه طاقم السفينة كلَّه، فهذا لا يهم، وهي لن تشعر بالأسف، المهم أن تراه حالاً. ولكنَّ نداء البطاطا جاءها بشخص آخر غير إدوين.

التعامل مع الأمنيات

طويلة أيام الصيف في الشمال، تستمر حتى شهر آب تقريباَ. يكون النهار طويلاً جداً حتى تكاد لا تعرف الفرق بين الليل والنهار.

في مساء أحد الأيام من شهر آب، قررت إلزا الصهباء أن تتنزّه بعد العشاء. فبعد تناول البطاطا المسلوقة على العشاء منعها شيء ما من النوم. لربما كان الطعام ساخناً جداً، ولم تستطع معدتها تبريده بأي وسيلة. كان مزاجها متقلباً بشكل عام، تارة تشعر بالفرح وتارة أخرى بالحزن. أمّا الرغبات والطموحات والأهواء فكانت تتلاطم في البحر. كلَّ صباح كانت إلزا تأتي إلى الشاطئ لتتمشى في المياه الضحلة. لا أحد يعلم ما هي أوّل أمنية أو رغبة ستكون غداً عند قدمَي هذه الفتاة، وأيٌّ منها سيضيع تماماً في البحر. لربما سترغب بالذهاب فجأةً إلى الغابة لجمع ديس الشمال، أو بأن تصعد بساق واحدة إلى المنارة؟ أو قد يتأجّج ويرنّ شيء ما في داخلها، ويدعوها لكسر كل العدسات التي تكثّف أشعة الضوء أضعافاً كثيرة في المصابيح التي تهتدي بها أبعد السفن. ولكن حينها قد تضلّ سفينة إدوين طريقها فلا يرجع والدها إلى المنزل. قريباً ستنتهي الليالي البيضاء التي باتت تتراجع، وها هو الآن يقترب الظلام. وبكل بساطة قد تضلّ إلزا سبيلها في الغابة، فلا تتحمل ساقاها رحلةً طويلةً كهذه، وتخور قواها، ويحدث كل ذلك في غياب إدوين. كيف لها أن تمرض وهو بعيد عنها؟ كان عليها أن تحسب حساب كل شيء، لكن إلزا أطلقت العنان لما في خيالها من رغبات وطموحات وأهواء.

وما هي إلا ثلاث دقائق حتى جمعت كل ذلك ملء يدَيها، فيما كان الماء يتلاعب بكل ما يستحق الجمع من رغبات وطموحات وأهواء. واكتنفها شعور غامض بنفاد الصبر، بالتوق لرؤية أي شخص كان غير الذئب كوليك سوروكا. لم تكن تعلم إن كان يَحسُن بها أن تأخذ هذا الشعور بنفاد الصبر، أم أن تتخلّى عنه؟ فطوت الجزء المبلل من فستانها، ووضعت فيه كل ما تسنّى لها التقاطُه من الماء. ثم قلّبته بين يديها، وفكرت قليلاً، ورحلت مع طرف الفستان ونفاد الصبر. وبعد أن خاضت في الماء عبثاً بعض الوقت، ظلّ ما تبقّى من الرغبات في البحر صغيراً، لا يستحق العناء. وبات في مقدورها الآن أن تذهب لتنام.

كابورياك آخر

أدارت إلزا وجهها نحو المنارة وذهبت إلى منزلها. كان الوقت متأخراً، وكانت الشمس تطل من مكان ما فوق لجّة البحر. في الحقيقة، كان الظلام يهبط والجوّ غير مريح. فجأة سمعت مشرفةُ المنارة الصغيرة صوتاً يناديها: يا بنت! هل تريدين حصاة جميلة؟

استيقظ الذئب كوليك سوروكا في مكانه فوق، بالقرب من ضوء المنارة، وهبط مسرعاً نحو إلزا. فشعرت أن صوتها على وشك أن يختفي، وأن النمَش على وجهها سيبهت، وأن ركبتيها ستغطيهما الكدمات. ما العمل؟ كانت تخاف أن تلتفت، ولكنها لم تستطع تجاهل السؤال الذي طرحه عليها الصوت بجلاء، إذ لم يكن حولها بناتٌ أخريات.

- عن أيّ حصاة تتكلّم؟ - سألت إلزا من دون أن تلتفت. وبدا لها ما قالته أفضل حل.

- عن حصاة من الكهرمان، ربما. - أجابها الصوت.

- هه ... ما بك؟ - صرخ الصوت بكوليك سوروكا الذي اندفع عبر الباب، وبقفزتين ونصفٍ صار بالقرب من الشخص المجهول. وهنا التفتت إلزا إلى الوراء، فرأت شاباً طويلاً، شديد البياض، يحاول الصعود إلى السارية المنصوبة عل طوّافة خشبية [2]، والذئب يقفز حولها ويطلق هريره.

- كوليك سوروكا، تعال إليّ! - نادته إلزا.

- كان أبي على حق، فليس مرساكُم بمكان آمنٍ على الإطلاق. - قال الشاب، ثم أضاف: - أنا كابورياك، بوريس ميخايليتش. متدرِّب في مجال صيانة المنارات وضمان سلامتها. باختصار، أنا طالب.

- أنت ميخائيل بوريسوفيتش! - صحّحت إلزا وقطّبت جبينها. فهي لم تكن تطيق الكذب. صحيح أنها لم تصادف هذا الشاب من قبل، ولكنها شعرت أن ما يقوله غيرُ صحيح.

لا، لا، أنا بوريس ميخايليتش. خُذي... - وألقى في الماء زجاجة البريد، وفي داخلها رسالة مختومة.

«عزيزي إدوين، للأسف الشديد لن يكون باستطاعتي زيارةُ منارتك في القريب العاجل. لديَّ أمور بالغة الأهمية تدفعني إلى آفاق أخرى. إلا أن أخلاقي المهنية لا تسمح لي بترك المبنى من دون فحصٍ وإجراء صيانة وقائية له. لذلك أرسل لكم ابني البكر بوريس ميخايليتش. تستطيعون أن تنادوه «بوريس» ببساطة، أو «بوريا». إنه شاب، ولكنّه عندٍ حسنِ الظن. - فقد قام بفحص وإصلاح الكثير من المنارات، وخلّف انطباعاً جيداً لدى حراس المنارات، ولم يشكُ من جودة عمله أحد منهم.

عزيزي إدوين، لننسَ خلافاتنا وسوء تفاهمنا القديم. آمل أنك ستُظهر أفضل صفاتك، وتزيل الانطباع السيئ عنك كشخص فظٍّ - صعبِ اِلمراس. لا يحتاج الشاب لأكثر من مأوى، وطعامٍ ساخن ومعاملةٍ حسنة.

تحياتي الحارّة

كابورياك».

كل شيء واضح، - قالت إلزا. - إدوين ليس هنا، ولكني، أنا إلزا، موجودة. لا أدري ما المقصود بـ «حسن المعاملة». أما المأوى والبطاطا الساخنة فهي متوافرة في المنارة.

الحَجْر الصحّي

أمضى بوريا كابورياك اليوم بطوله وهو يجول في المنارة، صعوداً ونزولاً. أخرج من حقيبته سكيناً صغيرة وشرع يكشط بها الطلاء عن الجدران، ثم يتفحّصها بسمّاعة طبّيّة. كان يمكث برهة في بعض الغرف، ويقضي وقتاً طويلاً على الدرج، ثم ينزل إلى القبو، أو يقف على البرج بجانب مصباح المنارة. أو على العكس، يقف عند حافة المنارة ويسرِّح نظره بعيداً. بعدئذ تسلّق سلّم الحبال حتى بلغ مؤشر الرياح في أعلى نقطة من المنارة، وتمكن بطريقة ما من الجلوس على القبة، ففتح حقيبته، وأخرج منها سماعته الطبية، وضغط بها على مؤشِّر الطقس الذي كان على هيئة ذئب معدنيّ يشير أنفه إلى جهة الشمال الشرقي. «هل سيسقط أم لا؟ - تساءلت إلزا، - وإذا ما سقط فكيف ستنقذه؟». لم تكن تتخيل أبداً أن مؤشر الرياح مهم إلى هذه الدرجة ويستحقّ كل هذه المخاطرة، وأن هذا الشاب أكثرُ جرأة مما ظنّت.

- كل شيء واضح. - قال كابورياك في المساء. - ينبغي البدء بالعلاج. -في السجل المرَضي لهذه المنارة...

- أين؟ - تساءلت إلزا. فهي لم تسمع بمثل هذه الكلمة من قبل، ولم تجدها في القاموس أيضاً.

قال بوريا:

- لقد تعرّضتِ المنارة ذات مرة، كما فهمتُ، لانزلاق طفيف في الأساسات، وتساقط الجصّ عن أسقف بعض الغرف، إضافة إلى وجود كتابات ونقوش على الجدران. ولم يكن المصباح ينظّف بانتظام، أليس كذلك؟ أعني في الوقت المناسب، صحيح؟ أحدثك هنا عن الأسباب، لتتضح لك الصورة عن حالة المنارة في الماضي. والنتيجة هي خللٌ في مظهر المنارة الخارجي والداخلي. سقفٌ متَّسخٌ فوق المصباح. رطوبة في القبو. وكسورٌ في سياج السلالم. وصرير في مؤشر الرياح.

- هل هذا خطير؟ - سألت إلزا بقلقٍ ظاهرٍ.

- كل شيء قابل للإصلاح، ولكن لا بد من ترميم المنارة. انصتي بانتباه واحفظي ما سأقوله. أنصحكِ بإجراء حجْرٍ صحّي، وتخفيف الحمولة، وتقليل ساعات تشغيل المصابيح. سنبدأ العمل صباح الغد. أنتظرك في الثامنة صباحاً، بلباسك الرياضي عند المصطبة الخشبية. كل شيء واضح؟

- ماذا يعني الحجْر الصحي؟

- هذا يعني إغلاق المنارة أمام الآخرين مدّة الترميم، وعدم إنارة المصابيح إلا في حالات الضرورة القصوى. انتهى! الوقاية شعاري، لكن ما دمتم قد أوصلتم المبنى إلى هذه الحالة، تفضّلي بتصحيح أخطائكم وإرجاع الأمور إلى وضعها الطبيعي المستقر. ولكن لماذا يعيش حيوان هنا؟ لا مكان للغرباء هنا، ماذا جرى لعينك؟ على كل حال، حان وقت النوم. هل سمعتِ بالروتين اليومي؟ إطفاء الأضواء. وصمت مطبِق!

خطر لإلزا أن تجيب عن أسئلة كثيرة. لكنها فتحت فمها وأوشكت أن تقول: علينا أن نتحقق في البداية مَن هو الغريب هنا؟ دعْ عيني وشأنها، ويجدر بك أنت أن تذهب إلى النوم على طوّافتك. لكن الذئب كوليك سوروكا سحبها من فستانها إلى الغرفة، وبدا وكأنه يطلق بعض الهرير، وهذا ما لم يفعله من قبل أبداً. ومن هول المفاجأة انفجرت الطفلة بالبكاء.

سلام من العمّة تانيا

انفجرت إلزا الصهباء بالبكاء، بل وأمام شخص غريب. فقد أمرها هذا الغريب، كابورياك الابن، بضرورة إغلاق المنارة بعض الوقت، وعدم إنارة المصابيح، وعموماً بتنظيم وقتها بالساعات، فكيف لا تبكي؟

«ما العمل؟» - جال في خاطر بوريا. عموماً، كان يعرف جيداً ما يجب عليه فعله في مثل هذه الحالات. فقد كانت شقيقاته الثلاث وأخوه الأصغر سنّاً يبكون أمامه باستمرار، تارة كلٌّ بمفرده، وأخرى كلّهم معاً بصوت واحد. كان

باستطاعته أن يهدِّئ الجميع، فهُم إخوته. إنهم الآن بعيدون، كم هم لطفاء، وما أسرع ما يبكون! وكاد كابورياك نفسه أن يجهش بالبكاء ما إن تذكّرهم. لقد غادر المنزل منذ فترة طويلة. لم يعد يمسح أنف أخيه، ولا يعقد شرائط شعر شقيقاته. ولكن يجب عليه الآن أن يتصرف، فـ «المريض يبكي» أمامه، - فكر الطالب كابورياك كأنه طبيب تماماً.

ثم أسرع ففتح حقيبته وعليها الصليب الأحمر فأخرج منها دواء «الفالريان» المهدِّئ، وسكب منه بضع قطرات في كأس من الماء وقدّمها لإلزا. ولكنها ما إن نظرت إلى الكأس حتى أصيبت بنوبة بكاء أشد. جسّ بوريا نبضها، وتحسّس جبهتها، وأطال التفكير... ماذا يجب عليه أن يفعل؟ هل يقيس ضغطها؟ هل يعطيها حبوب فيتامين فوار؟ ثم أدرك أنه لن يكون بإمكانه إرغام هذه الطفلة الباكية حتى على تناول حبة سكاكر. شرع يدور حول إلزا، يحك مؤخرة رأسه، يفتح ويغلق حقيبته مراراً من دون أن يفعل شيئاً. استمر البكاء قرابة خمس عشرة دقيقة. وعندما بدأت الطفلة تحزق، قال فجأة:

- الآن تذكرت، لك سلام من العمّة تانيا.

هدأت الصهباء إلزا قليلاً.

- أجل.. أجل، لك سلام منها، لقد نسيتُ تماماً أن أخبرك بذلك. والآن تذكّرت.- قال بوريا.

- من... العمّة... تانيا؟ - سألت إلزا، وشرعت تمسح دموعها. - ومن هي هذه؟

- كيف؟ من العمّة تانيا نفسها.

هذه العمّة تانيا تعرف كل شيء عن الجميع. لا غرابة في ذلك. عمرها يناهز المائتين، على الرغم من أنها تبدو أصغر سناً بكثير، كأنها في الثمانين، على أبعد تقدير، بل حتى في الثالثة والسبعين من العمر. لا يعلم أحد أين تسكن. ربما على جزيرة، أو على اليابسة. كثيراً ما نعثر على زجاجات بريدٍ في البحر وفيها رسائل منها، وأحياناً تحتوي هذه الرسائل على خرائط تدل على مكان فيه كنز، وقراصنة، وجزرٌ مجهولة. لكن العمّة تانيا غالباً ما ترسل كلمات كهذه:

- إني أراك!

- ما أشطرك!

- كيف تسمح لنفسك بهذا؟

وحتى:

- أشفِقْ على والدتك!

ولسببٍ ما، أكثرُ من يلتقط مثل هذه الرسائل هم الأطفال. فمثلاً الرسالة التي تقول «أشفِقْ على والدتك!» يجدها الأطفال وقت الغروب، عندما يطول انتظار الأهالي أبناءهم على العشاء.

أفضل طريقة لتهدئة طفل يبكي هي أن تنقل له سلاماً من العمة تانيا. هذه الطريقة قد تنفع حتى مع الكبار. جرِّبوها بأنفسكم! الأطباء أنفسهم ينصحون بها، كما ترون. لاسيَّما إن كان السلام من هذه العمة تانيا تحديداً. تذكّروا ذلك! وهذا بالضبط ما حدث مع إلزا. لقد توقفت عن البكاء على الفور، بالرغم من أنها تسمع باسمِ العمة تانيا للمرة الأولى. وكأنها نظرت إلى العالم بعين جديدة (في هذه اللحظة نظرت إلزا بعينها اليمنى، إذ كانت العُصابة تغطي عينها اليسرى). هدأت وقالت:

- أوافق على لعب التمارين الرياضية، لكن شريطةَ أن يبقى المصباح مضاءً.

- حسناً، حسناً. الصباح رباح. - أجاب كابورياك بتذمّر وذهب لينام.

مارتا ومارك فيليب

والآن دعونا ننتقل إلى يخت ««كورماتش»»، هذا إن كنتم لم تسأموا التنقل بعدُ من مكانٍ إلى آخر. ليس هذا المكان بعيداً، بينه وبين المنارة ما يقارب أربعين ميلاً بحرياً. ويتحرك اليخت على محاذاة الشاطئ الذي تقيم عليه إلزا.

جميع من على متن هذا اليخت مشغولون بالعمل منذ الصباح الباكر وحتى آخر المساء، يقومون بإعداد علَف للحيوانات التي تعيش على الشواطئ، ثم يقسِّمونه حصصاً... وإذا صادف اليخت في أثناء إبحاره جزيرة ما، أو صخرة وحيدة في عرض البحر، فإنه يقوم بإطعام الحيوانات الموجودة هناك أيضاً.

على شاطئ موحش لخليج هادئ انضمّ إلى فريق العمل في اليخت امرأة وابنها. ماذا نستطيع أن نقول عنهما؟ المرأة شقراء الشعر، لا يكاد الناظر إليها يرى رموشها من شدّة بياضهما. اسمها مارتا. كان ابنها يضع عُصابة على إحدى عينيه، اليمنى تارة، واليسرى تارة أخرى، حسب مزاجه، وتحت أنفه بدأ ينبتُ شاربٌ صغيرٍ أصهب اللون. كان اسم الصبيِّ طويلاً جداً، لا يتّسع هذا الفصل لذكره كاملاً، لذا سأكتفي بذكر ما استطعت حفظه منه. اسمه كما يلي: «مارك، فيليب، ألكسندر، أليك، فينيمور، غراي، كورستين، هيرمَن، بوشكين، سان، مارك، فيليب». يناديه البحارة باسم مارك فيليب، اختصاراً.

لا يدخل اليخت عادةً إلى ذلك الخليج المهجور، إذ في جميع الأحوال لا توجد فيه أيُ حيوانات جائعة. وقد تردّد على مسامعهم أن قراصنةً يختبئون في الغابة المظلمة، وكثيراً ما ينصبون الكمائن هناك. لكن رحلة اليخت هذه المرة كانت مختلفة تماماً. فقد رأى طاقم اليخت شخصاً يلوّح براية بيضاء، تبيّن فيما بعد أنها قميص مارك فيليب. وما إن وصل اليخت «كورماتش» إلى الشاطئ حتى ارتدى الصبي قميصه بعد أن فكّه عن العصا الطويلة التي كان يلوّح بها. لم تتحدث مارتا ولا فيليب عمّا كانا يفعلانه على الشاطئ، ولا عن سبب رغبتهما بالرحيل، أو لماذا كان الصبيّ يضع عُصابة على إحدى عينيه بالتناوب. كان الجميع على متن اليخت مشغولين بعملهم. لا وقت لديهم للأحاديث الفارغة. كما أن العاملَين الجديدَين لم يكونا أقلَّ نشاطاً من البحارة والطباخين، بل ولا حتى ممّن يحضّرون العلف للحيوانات.

إنها العاصفة.. حتماً

كانت الأمور على متن السفينة «أنطوني والحلوة نون» تسير على ما يرام، إذ تولّى الأصهب إدوين عجَلة القيادة، ولم يعد يبدو للبحارة أن السفينة واقفة في مكانها. كلا، لقد أخذت الآن تجوب البحر بسرعة ملحوظة. فلم يعد البحارة يتقلّبون بين مرح المجانين وحزن اليائسين. كان الجميع منكبّين عل العمل بانسجام، لا يتسكّع أحد منهم لاهياً على متن السفينة، أو يسرِّح نظره نحو الأفق لامبالياً بشيء. أخيراً جفّت الأشرعة وراحت السفينة تشق عباب الأمواج. إلا أن كل شيء كان يبدو على ما يُرام للوهلة الأولى فقط. ولكن النظرة الثانية كانت تكتشف فوراً أن السفينة «أنطوني والحلوة نون» كانت تنحرف عن المسار المحدد لها بمقدار درجة أو درجتين. بتعبيرٍ آخر، كانت السفينة تسير بسرعة جيدة إنّما في الاتجاه الخطأ. ولحسن الحظ، كانت الخرائط الجافة بحوزة إدوين وحده، والبوصلة الصحيحة مع القبطان الذي فقد من زمانٍ الاهتمام بالرحلة، وبسفينته وبالبحر عموماً. وهكذا كان إدوين وأنطوني والحلوة نون يقودون السفينة بحرِّيّة نحو هدفهم المنشود. وعلى جريِ عادته، نادراً ما كان القبطان يخرج إلى متن سطح السفينة، فينظر إلى الأفق ويردد كلّ مرّة:

- ستكون أوضاع الناس عسيرة لولا حمولتنا. فهُم لا غنى لهم عنها إطلاقاً.

كان يمكن للوضع أن يستمر على هذه الحال، وللسفينة أن تصل إلى غايتها المجهولة لولا هبوب العاصفة البحرية. (بالطبع، وكيف لأي رحلة أن تمضي من دون عاصفة؟). كانت الأمواج تميل بالسفينة، تؤرجحها، بل وتتقاذفها أيضاً. وكادت الرياح أن تمزق الأشرعة، لو لم يتسنَّ للبحارة طيُّها قبل فوات الأوان. لا يمكننا القول إن السماء امتزجت بالبحر، كلا، فقد كانت العاصفة مهذبة جدّاً، لم تشأ أن تسبب للناس متاعب كبيرة، وكانت هناك رغبة في أن تشتدّ قليلاً وتثور. كانت الريح تمزح وهي تهزّ السفينة وتدفع موجة تغمر سطحها بالماء. وكما لو نكايةً، كانت تلك الحمولة الثمينة الموجودة على السطح مؤلفة من صناديق الصابون، وعبوات الشامبو، ورغوة الاستحمام. ويا لَهول ما حدث! حقاً، لقد كان البحّارة وإدوين عاجزين - عن رؤية الحدود بين السماء والبحر، إذ تحوّل كل شيء إلى رغوة وفقاعات. وبات الماء المختلط بالصابون يدخل العيون فيؤذيها، ولم يعد أحد قادراً على التحكّم بعجلة القيادة. فلم يبقَ لأفراد الطاقم إلا أن يسلِّموا قدرهم للسفينة نفسها. إلا أن أنطوني والحلوة نون راحا يقودان السفينة خبْطَ عشواء، من غير ما معرفة بالطرق وتيارات البحر. وشرعت الريح والأمواج تدفع الرغوة والفقاعات باتجاه المنارة.

طبعاَ.. عاصفة

كانت الأمور على متن اليخت «كورماتش» موضعَ خلاف أيضاً. فقد كان اليخت يتحرك ببطء في البحر، ولا يبتعد عن الشاطئ. وكان الطاقم منهمكاً بإطعام الحيوانات، والبحثِ عن حيوانات جديدة، وإعدادِ الطعام وتقديمه لحيوانات البحر من جديد. وذات يوم شعر مارك فيليب بأن شيئاً مجهولاً، عاصفةً بحرية أو إنذاراً بهبوبها، سيقع عمَّا قريب. ثم تغيّر لون البحر والسماء بقوة. ربّما لن يحدث شيء، وما تنبّؤه أكثر من ظنون. لقد راودته رغبة في أن يتحدث لأحد ما عن شكوكه، ولكنه لم يفعل. فأنتم تذكرون أن جميع من في السفينة كانوا منهمكين بعملهم منذ الصباح وحتى المساء، ولا وقت لديهم لهذه الأحاديث الفارغة.

كان الطاقم عادة يتغلب بنجاح كبير على العواصف الخفيفة والمتوسطة. وبينما كان اليخت الآن يمضي بعيداً في البحر خشية أن تحطمه الرياح عند الشاطئ، أنزل البحارة الأشرعة وقرروا المكوث في قُمراتهم ريثما ينقضي وقت هذا الطقس الكريه. ولم يقترب من عجلة القيادة إلا مارتا التي بادرت إلى ذلك من تلقاء نفسها، وابنُها مارك فيليب الذي انبرى لمساعدتها.

وها قد هاجت العاصفة، وراحت الأمواج تتقاذف اليخت صعوداً وهبوطاً وفي جميع الاتجاهات، إلا أن مارتا سعت جاهدة للحفاظ على خط السير، يساعدها مارك

فيليب على تثبيت عجلة القيادة. واختلط كل شيء: الأرض والبحر واليخت الصغير وسط هذا الهياج. ولم يعدِ باستطاعة مارتا وابنها الحفاظُ على خط السير، فتشبّـثا بعجَلة القيادة تفادياً للسقوط عن متن «كورماتش».

وفجأة اندفعت هبّة ريح شديدة القوة أفلتت عجلة القيادة من أيدي مارتا ومارك فيليب، ولسع عيونهما شيء حارق حادٌّ، له رائحة الورد والسوسنٍ وأزهار الآذريون.

واضح أن ما دفع الزبد وفقاعات الصابون باتجاه «كورماتش» هي الرياح والأمواج التي أدارت اليخت بخفة، كأنه رغوة، نحو المنارة. فانطلق الطاقم إلى السطح وشرع بصمت يحاول التحكم بحركة اليخت. وسرعانٍ ما التهبت عيونهم جميعاً فأخذوا يمسحونها بماء المطر. كل ذلك كان مصحوباً بزئير الريح وهدير الأمواج وبصمتٍ مطبِق، فلم يكن مألوفاً على متن «كورماتش» إطلاق الكلام عبثاً.

فقاعات العاصفة

وذات مرّة هبّت عاصفة بحرية، كان ذلك في صبيحة اليوم التالي بالضبط، بعد أن أبلغ كابورياك الأصغر إلزا تحيات العمة تانيا. ولعل ذلك لم يقع في اليوم التالي، فالأيام تتداخل أحياناً حتى يصعب التمييز بين يوم وآخر. وعلى كل حال، فقد استيقظت إلزا في ذلك اليوم، وفكرت إن كان يوماً للرياضة أم للخصام مع بوريا حول من يحق له أن يشعل مصباح المنارة. أو ربما يكون يوماً لكلا الأمرين. لكنْ حدث أمر آخر. في البداية لم تكن إلزا ترغب بالنهوض، فتقلّبت في الفراش طويلاً. عموماً، لم تكن إلزا تحب العواصـف كثيراً. - فالطقـس سيـئٌ، ولا جدوى. لكنّ فيه شيئاً من التنوع يكسر هذا الهدوء المملّ. بل وأحياناً يمكن تحمُّل العاصفة أيضاً. تكون جالساً في المنارة، تنظر إلى البحر وهو يعربد ويهدر، فتثور الأمواج، ويتدافع الهواء المالح جيئةً وذهاباً، وتختلط السماء المظلمة بالبحر من جديد. إنك في هذه الأوقات لا تخرج حتى لشمِّ الهواء،

خشية أن تطرحك الريح أرضاَ، أو تجتاحك موجة عالية. إننا نحتاج بعض عاصفة، وليأتِ بعدها نسيمٌ عليلٌ من جديد، أو حتى ريحٌ تلسعُ، وأمواجٌ رقراقة صاخبة يمكن التأرجح عليها في زورق صغير.

ظلّت إلزا مستلقيةً حتى غفت على مهل، ففاتتها بداية العاصفة. فجأة راح أحدهم يرشق ماء البحر. إنه انفجار العاصفة. فتحت إلزا النافذة ونظرت إلى البحر، لكنها لم ترَهْ. فقد كانت تتطاير حول المنارة فقاعات صابون مختلفة: كبيرة، ضخمة، مدهشة، غريبة، صغيرة، أو لا تراها العين المجرّدة. لم يكن في البحر ماء، فقد حلّت محلّها رغوة الصابون، ورائحة حلوة نفّاذة قادمة من البحر. ما الذي يمكن أن يحدث؟ ما هذه العاصفة الغامضة التي تأتي بفقاعات الصابون؟

كان بوريا كابورياك ينظر إلى البحر من النافذة المجاورة جامد العينين، فاغراً فاه. وعلى هذا النحو تقريباً كانت ملامح إلزا. كلاهما كانا يراقب العاصفة بانتباه جعلهما يغفلان عن هبوط المساء. وحده كوليك سوروكا كان يركض جيئة وذهاباً على السرير ويطلق الهرير. لكنه كان هريراً غريباً جداً، تارة شاكياً كهرير كلب تلقّى الضرب قبل قليل، وحيناً مبتهجاً مثل جرو رأى صاحبه بعد طول انتظار. تارة يضع أماميّـتيه على حافّة النافذة، وحيناً آخر يقفز على قوائمه الأربع، ثم يلقي بنفسه عند قدمَي إلزا. لم يسبق له من قبلُ أن فعل شيئاً كهذا قَطّ. «لا بدّ أن كوليك سوروكا يريد أن يخرج ليتمشّى». - خمّنت صاحبته -، وخرجا إلى الشارع معاً.

صوت من الظلام

لفَّ المنارة ظلام دامس. لم يكن غبَشاً، ولا ضوءاً يتبدّد، ولا حتى عتمة، بل كان ظلاماً دامساً. ولو أن أحداً طلب من إلزا أن ترفع أصبعها أمام عينها لتنظر إليها، لما رأت شيئاً. إنه لأمر غريب، فقبل دقيقتين كان بإمكانها وهي فوق أن ترى فقاعات الصابون، أما الآن فلا شيء إلا الظلام الدامس. مدت إلزا يدها

أمامها، فصارت دبِقة. «إنه الظلام»، - استنتجتْ. كما يقولون: «ظلام دامسٌ دبِق». هذا هو الظلام الحقيقي الدبِق، بالضبط.

فجأةً تخبّط شيء ما بالقرب من الشاطئ تماماً، وأخذت الأمواج تزداد تلاطماً وهديراً، وسُمِع صوت يشبه التصدع.

- ليت صوتي يختفي، لماذا منارتكم مطفأة؟ - سأل الصوت من قلب الظلام.

ركضت إلزا صاعدة إلى المنارة، بينما أخذ الذئب كوليك سوروكا يقفز عشوائياً في جميع الاتجاهات. تارة يركض وراء مربيته، وتارة أخرى يقفز مبتعداً عن مصدر الصوت.

ولكن دعونا نجري وراء إلزا، فثمة أمور محزنة على وشْك الحدوث الآن، دعوها تشعر بمساندتنا لها.

لقاء لا يسرّ

لم تكن إلزا نفسها تدرك ماذا يحدث لها. كانت المنارة مضاءة منذ مدة، وطاقم اليخت «كورماتش» قد تناول عشاءه، وارتدى لباساً جافّاً، وخلَد إلى النوم. وقبل النوم فحص بوريا كوبرياك شخصياً البحّارة فرداً فرداً، وجس نبضهم ليطمئنّ إلى دقات القلب، وتحقق من انتظام تنفسهم، وقاس ضغطهم وتلمَّس بطونهم. كان كل شيء على ما يرام، ولكن الإرهاق كان بادياً على أفراد الطاقم كلِّه، وكان اثنان منهم يعانيان من اضطرابٍ معتدل. وبينما كان الطبيب يقوم بفحص البحارة، كان الصبي ذو العُصابة السوداء يحوم حول مصباح المنارة، يُتمتم بلسانه ويردِّد كلاماً من قبيل:

- ليت بوصلتي تتحطم، إن لم تكن هذه منارةَ الشمالِ الحقيقية! ولتتمزّقْ عُصابتي إن لم تكن هذه المنارة تضيء مسافة أربعين ميلاً بحرياً!

ثم ركض مبتعداً عن المصباح، ونظر من النافذة إلى البحر، وعدّل عُصابته وصفّر عدة مرات، وتمتم:

- يا أسماكَ القرش/ حشراتِ الفاكهة! يا له من منظرٍ خلّاب!

وبسبب كل هذا الصفير والتمتمة وآهات التعجب كانت إلزا الصهباء ترتعش كل مرة وتفرك ركبتيها، كأن عليهما كدَمات. أرادت أن تقول لهذا الصبي الوقح أن يخفض صوته، فهو ليس في بيته، لكنها لم تستطِع لأن صوتها اختفى. فبهتَ النمَش على وجهها.

- كُفَّ عن ألاعيبك، كأنك قرصان لا أكثر، - قال له كابورياك، وقد جعلت شدةُ اضطرابه الكلماتِ تختلط في رأسه. - ألا ترى، انظر، كم ساءت حالتها، أم لا.

وهنا لاحظ الجميع ما يحدث لإلزا. لقد اختفى النمَش تماماً من وجهها، وأصيبت ركبتاها بكدَمات راحت في الحال تحكّها بقوة وإصرار إلى أن رأت على يديها آثار طفَحٍ جلدي. وسرعان ما انتقلت عدوى الحكِّ إلى يديها ورِجليها ورأسها، بل وإلى بطنها أيضاً. فانخرطت بالبكاء، وسالت من عينيها دموع حارّة جداً، أراد كوليك سوروكا أن يلعقها فكوَتْه. وراح يئنّ ويدور حول مربيته، ثم انقضّ بغتة على مارك فيليب.

- أيها اللعين، لا تقترب، ما دام لا أحد...

بدأ الفتى بالزعيق، ولكن الذئب لم يلبث أن خطف العُصابة عن رأسه، وفي لحظة جعلها هباء، كأنها لم تكن! ولم يبقَ منها إلا مِزَقٌ صغيرة على الأرض. وبحرص دفع بأنفه العُصابة التي على عين إلزا أيضاً، ومزّقها شرَّ ممزِّق.

بدت عين الفتاة التي كانت تحت العصابة متورّمة، أو لا تكاد تُرى. وهذا ما حدث للعين الأخرى أيضاً.

- حسناً! - صرخ كوبرياك الابن بصوت عالٍ، لقد فهمت. هذه حساسية. كل الأعراض واضحة. فما هي الأشياء التي تسبب لك الحساسية؟

بالطبع، لم تتمكن إلزا من الإجابة على سؤال بوريا. أولاً، لأنها كانت تبكي، وثانياً، لأن صوتها كان قد اختفى. وعموماً، فهي لم تكن تعرف معنى كلمة «حساسية»، ولا ما هو سببها على وجه التحديد.

وهنا نطقت مارتا:

- إنها تتحسّس من القراصنة، - قالت. - وذلك منذ طفولتها. أنا أعلم ذلك، إنني والدتها.

معالجة الحساسية

- الحساسية تُعالج هكذا، - قال كابورياك الابن بصوتٍ ذكيّ، - دعونا نبدأ فلا نضيع الوقت بأنواع من التعجب.

في الحقيقة، لعلّنا في هذه اللحظة لا نزال نتعجب، ونفتح أفواهنا، ونحملق بأعيننا، ونشير بأصابعنا إلى مارتا ومارك فيليب، فيما الوقت يطير بسرعة البرق، وحالة إلزا تزداد سوءاً، فهي لم تعد ترى أحداً بسبب شدّة ورمِ عينيها.

- إذا كانت المريضة تتحسس من القراصنة، فينبغي عزلها عن جميع القراصنة، - أردف بوريا. - أقترح إخلاء المنارة طوعاً. ومن جهتي أُعِدكم بالكتمان وعدم البوح بالمكان الذي تكونون فيه.

لكن أحداً لم يتحرك. لعلّهم لم يفهموا قصده. فحينما كان الطالب كابورياك يشعر بأن صحة المريض في خطر، كان كلامه مشوشاً، وجُمَلُه تطول إلى حدٍّ غير معقول. وقد جاء الوقت الآن لأن يلقي خطاباً رسمياً.

- أعيد وأكرِّر، - قال بصوت أعلى، - يجب على كل القراصنة إخلاءُ المكان حالاً.

ومن جديد لم يتحرك أحد، وازدادت حالة إلزا سوءاً. وانتشر الطفح في جسدها كله فاحمرَّ، وصار لونها قرمزياً ملتهباً.

- على جميع القراصـ... - عاد كابورياك يخطب، ولكن الذئب كوليك سوروكا أطلق عواءه باتجاه القمر. ففهم الجميع ما أراد بوريس قوله، إلا أن أحداً لم يسمعه. وحدَها إلزا تنفست بيسر أكبر (حتى تلك اللحظة كانت تتنفس بصعوبة بسبب الحساسية).

- لا تلفظ هذه الكلمة بعد الآن، - قالت والدة إلزا، - إنها تتحسس منها أيضاً! ولتنسَ أنت كلماتك التي تعلمتَها من صاحب اللحية وأصحابه. إن أختك في حالة سيئة. - وكانت الأم توجِّه كلامها إلى مارك فيليب أيضاً.

«أنطوني والحلوة نون» يتّجهان إلى البيت

خرجت السفينة عن مسارها تماماً بعد هبوب العاصفة، فباتت نظرات البحارة فارغة ولم يعودوا يولون أي اهتمام لما يحدث خارج سفينتهم. وفجأة صفَتْ عينا القبطان ولمعَتا، وانفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة، فخرج لاستنشاق الهواء النقي.

- أصغوا لأوامري! - قرر القبطان أن يظهر سلطته. فهو لم يمارسها منذ بداية هذه الرحلة البحرية. هذا ما يفعله الهواء العليل الغني بالأوزون بعد العاصفة. جرِّبوا هذا بأنفسكم، أو حاولوا أن تتنزهوا بعد العاصفة أو بعد هطول المطر على الأقلّ، فقد تستيقظ فيكم رغباتكم المنسيّة من زمان.

- إننا راجعون إلى بيوتنا.

توقع الربان أن تسود البهجة والدهشة، أو أسارير الفرح على الأقل. لكن البحارة ظلّوا صامتين، تهيم نظراتهم عبر سطح السفينة والأفق، عبر السماء والبحر.

- هيا إلى العمل، يا رفاقي البحّارة.

لكن نداءه لم يسعفه بشيء. وظل البحارة واقفين في أماكنهم لا تستقر عيونهم على شيء. فأطرق الربان بعض الوقت ثم أمسك بفرشاة التنظيف صامتاً، وراح يغسل سطح السفينة. فهذا العمل يساعد على التفكير (بإمكانكم أن تجرِّبوا ذلك بأنفسكم). وسرعان ما تحوّلت عيون البحارة من مراقبة طيور النورس باتجاه عامل التنظيف. ثم أخذ القبطان بمفرده ينشر شراع السفينة. وكان الملاح أولَ من لم يستطع تحمل هذا المنظر فهُرِع لمساعدته. وبعد مُضيّ ثلاث دقائق كان الطاقم بأكمله يقوم بعمله المعتاد، أي بتوجيه السفينة نحو مسارها الصحيح.

- أصغوا لأوامري! - مرة أخرى صاح القبطان مدارياً ابتسامته وهو يكاد يضحك من الفرح. واجتمع البحارة حوله، فأردف: - لقد فقدنا حمولتنا الثمينة! - وأوشك أن يقفز فرحاً. - لكنّ هذا كله لا يهم! فنحن في جميع الأحوال لم نلتزم بأيٍّ من مِواعيد توصيلها! إننا عائدون! إلى بيوتنا عائدون!

عندها بدأ ما طال انتظاره من بهجة وفرح وسرور! فحمل البحارة ربّانهم على الأيدي وطافوا به ثلاث مرات على ظهر السفينة، وفجأة قذفوا به إلى البحر، ثم صاحوا بصوتٍ واحد:

- هناك إنسان يغرق! - وألقوا بأنفسهم في الماء. لم يبق على سطح السفينة إلا الأصهب إدوين. ورغم أنه ذئبُ شواطئَ عجوز، لم يكن على علم بكل طقوس السفُن.

خرج البحّارة من الماء، وراحوا يرتّبون على عجَلٍ كلّ شيء فوق ظهر «أنطوني والحلوة نون» حتى أعادوا للمرساة بريقها وللمكان ألقه المفتقدَين من زمان. وسرعان ما اعتدل كل شيء، وارتدى البحارة زيّهم الرسمي الأنيق. فقد أخبرهم القبطان أنهم سيكونون في بيوتهم بعد أقل من سبع ساعات. كان عليهم أيضاً أن يتدبّروا أمر الهدايا إلى أهاليهم، فوجد الطباخ في جيبه بذور بعض النباتات الغريبة التي كانوا يجمعونها من الشواطئ البعيدة، وقام المساعد الأول للربان بكشط الأصداف العالقة على مرساة السفينة. وغسل الملاح رملاً كان في القارب ثم وضعه في علبة البوصلة لغاية مجهولة. وخطف أحد البحارة فردة حذاء من رجل إدوين للذكرى. وتسلق الكشاف سارية السفينة، وراح يلتقط صوراً لطيور النورس. فقد كان في كل مرة يُهدي هذه الصور لأمِّه. واكتفى بقية البحارة كلٌّ بترتيب هندامه، وتنظيف أسنانه، وغسل قفا أُذنَيه.

- بريدٌ في الماء! - فجأةً صاح الكشاف من على السارية. على خط السير تماماً، كانت تقترب من السفينة زجاجة مسدَودة بفلينة وفيها رسالة.

قصة قديمة

كانت إلزا الصهباء تتماثل للشِّفاء. فقد اختفى الطفح الجلدي عن جسمها، وعاد إليها نمشها، وتوقف ألم ركبتيها. ولم يكن بوسع مَن ينظر إليها أن يقول إن عينيها كانتا منتفختين قبل وقت قصير. لكأنها تعافت، ولكنها ما زالت تتكلم بصوت خفيض، ومزاجها عكِرٌ، ليس على ما يرام... لم تكن إلزا ترغب بشيء، لا بالنزهة، ولا بقراءة القاموس، ولا بمداعبة ظهر كوليك سوروكا. حتى إنها نسيت أن عليها أن تضيء المنارة كل مساء. ولحسن الحظ، لم تكن وحدها في المنارة، بل كان هناك كثيرون تولّوا القيام بهذه الأمور.

- تعالي نتحدث. - قالت لها مارتا ذات مرّة جاءت فيها لزيارتها، واستلقت إلى جانبها في السرير.

استدارت إلزا نحوها ولم تنبِس بحرف.

- أنا والدتك، ومارك فيليب شقيقك.

- أمّي؟ أخي؟ وماذا عن إدوين؟ - سألتْها إلزا من دون أن تنتبه إلى الدموع التي سالت على خديها. لم تكن دموعها شديدة السخونة هذه المرة. بل كانت دموعاً عادية مالحة.

- حدث ذلك منذ زمن بعيد، وقتَ ولادتك. فقد رست قرب الشاطئ سفينة ترفع راية سوداءَ، وعليها بحّار مريض طلب إلَيَّ الربانُ أن أساعده. فأنا أجيد تضميد الرأس، وأعرف إن كان البطن موجوعاً أم لا، وأضرب الإبَر. ففحصتُ المريض. كان مارك فيليب لصيقاً بي، وله من العمر آنذاك مثلُ عمرك الآن. ها هو ذا. - وأشارت مارتا إلى تلك الصورة التي يظهر فيها إدوين وهو يحمل إلزا الصغيرة على يديه. - كان مارك فيليب يعتقد أنه لا بدّ أن يكون على متن السفينة شيء سحري. فأنت أيضاً تريدين أن تجدي شيئاً من هذا القبيل؟ أليس كذلك؟

- بارميزان؟ - سألتها إلزا.

- أولئك كانوا قراصنة. لم يكن أحد يمرض في السفينة. ولم يكونوا بحاجة إلا لشخص يحضِّر لهم الطعام، وينتظرهم على الشاطئ، وينظف مخبأهم السرّي. وحالما صعدتُ أنا ومارك إلى متن السفينة رفعوا المرساة وأبحروا.

- أبحروا؟ - سألتها الصهباء إلزا. كانت تنصت إليها منذ ثلاث دقائق، لا تقول شيئاً، إلا حين تطرح سؤالاً. فقد أذهلتها قصة مارتا.

- أمضينا في الأَسْر تسع سنوات لا نستطيع الهرب. أعرف أن إدوين كان يريد أن يحررنا. لكنك مرضتِ حالما رأيتِ القراصنة. فلم يستطع أن يتركك وحيدة. والآن كلّ شيء على ما يرام. لقد تمكّنا من الهرب، وسوف نعيش معاً من جديد. ولكنني لا أفهم، أين إدوين؟

- والمنارة؟ - سألتها إلزا. - أمَا انطفأتْ؟

قاموس جديد

- انظري، - قالت مارتا لإلزا، وأخرجت من حقيبتها دفتراً وقلماً وكتبت شيئاً ما.
- أعرف أنك تحبين القواميس. لقد صنعت لك قاموساً جديداً أصغرَ حجماً. فيه كلمتان بسيطتان، أشعر بالأسف لأنك لا تستطيعين قولهما.

غادرت مارتا. فنظرت إلزا في الدفتر، ثم نادت الذئب كوليك سوروكا وهمّا بالخروج معاً إلى الطريق. جلست على جسر خشبي وراحت تنظر الى البحر. واستلقى الذئب عند قدميها. راحت إلزا تفكر بكل ما جرى في الأيام الأخيرة، بأن لها الآن أمّاً وأخاً، وبأن كابورياك الأصغر لا ينفكّ يدعوها لممارسة التمارين الرياضية، وإغلاقِ المنارة وقائياً، كما يسميه. ثم لماذا لا يزال إدوين غائباً حتى الآن...

-أخبِرْني، يا كوليك سوروكا، كم عيناً يحتاج المرء؟

لم يجب الذئب على السؤال، واكتفى بوضع رأسه في حضنها.

- كنتُ من قبلُ أنظر إلى إدوين والمنارة، - قالت. - وإليك أيضاً. ثم غادر أبي،

فحجَبت عيناَ. أما الآن فيعيش في المنارة بوريا، ومارك فيليب، ومارتا، هذا فضلاً عنّي أنا وأنت أيضاً. مليحٌ أن طاقم «كورماتش» قد غادرنا الآن بأكمله.

- كم عيناً نحتاج؟ ألا تعرف؟ وحدَه إدوين قادر أن يجيب.

تنهد الذئب، ثم ركض إلى المنارة، وعاد بزجاجة البريد الفارغة.

- أنتَ على حق، - قالت إلزا، - فقد تأخر إدوين كثيراً.

شقّت إلزا من الدفتر صفحة الكلمات الجديدة، وأضافت إليها كلمات أخرى، ثم طوتها ووضعتها في الزجاجة، وألقت بها في البحر.. وما عليها الآن سوى الانتظار.

كُلُّ الناس إخوة

ذات صباح طرق مارك فيليب الباب على إلزا.

- اسمعي، تعالي نحطِّم مِشرطه. - قال وهو واقف على عتبة الباب. - لقد سئمت من إلحاحه على التمارين الرياضية.

في هذا الوقت كان بوريا كابورياك واقفاً تحت النافذة، يصرخ بأعلى صوته:

- هيّا إلى تمارين الصباح! تمارين الصباح! لقد حان وقت التمارين، هيّا انزلوا! إلزا! مارك فيليب! مارتا!

- هل إجبار الناس على ممارسة التمارين أمنية حياته، أم ماذا؟ ـ علّق أخوها. - أين حقيبته؟

لم تكن إلزا قد استيقظت تماماً حين توالت كل هذه الأحداث: الشمس في كَبِد السماء، ومارك فيليب يبحث عن حقيبته، وكابورياك يصرخ تحت الشباك.

- هل من رسائل؟ - أوّلُ سؤال طرحتْه إلزا.

- لا شيء يهمّ، سلام من العمة تانيا.

ما بال هذه العمة تانيا أصبحت مولعة بإرسال السلامات. أحياناً تأتي منها رسالتان في زجاجتين في اليوم. أكثر ما تكتبه هُراء: تنبؤات بالطقس، أو معلومات عن أسماء السفن، فمن يحتاج إلى هذا كله؟ أمّا إلزا فلا تزال تنتظر رسالة من إدوين. لكن لم يمضِ على إرسال رسالتها له سوى وقت قصير. وفيما إلزا تفكر في ذلك، مشى مارك فيليب على السرير وأطلّ برأسه من النافذة وسأل بلطف تقريباً:

- أنت، أيّها الصليب الأحمر، أما آنَ لك أن تبدأ بإصلاح المنارة؟

- انزلْ ومارسِ التمارين!

-اسمعْ، لقد قمنا بالتمارين، والآن سنحطِّم مِشرطك، هل تفهم؟

-أنت! - صرخ كابورياك وقفز من مكانه. – وما هي إلا دقيقة حتى كان في غرفة إلزا، - أعطِني مشرطي! أين حقيبتي؟!

بعد خمس ثوانٍ كان العراك بين بوريا ومارك فيليب قد نشب. فاضطرت إلزا لأن تقفز وتثب إلى شرفة النافذة. وحاول الذئب أن يفصل بين الخصمَين، لكن جهوده باءت بالفشل.

- توقّفا، أيها الصبيّان! - قالت مارتا فجأة بكل هدوء، وقد اقتربتْ للتو من الباب. - أنتم إخوة [3].

- كيف هذا؟ - سألت إلزا.

- بكل بساطة. ميشا كابورياك شقيقي. وبوريا ابنُه، فهو ابن خالِك. لا شيء أكثر بساطة. كلُّ الناس إخوة. هيّا نتناول طعام الإفطار. - وتوجّهتْ إلى المطبخ، حيث تنبعث رائحة الشطائر الشهية.

- وأخوَات، - أضافت إلزا بصوت مسموع بالكاد، وقفزت عن شرفة الشباك.

ما هذه الرسالة؟

اقتربت من «أنطوني والحلوة نون» زجاجةُ بريدٍ مسرعة. لو كان لزجاجات البريد مجاديف أو زعانف أو حتى أيدٍ، لقلنا إنها تجدِّف بأقصى سرعتها نحو السفينة. ولكن طبعاً ليس لهذه الزجاجات زعانف ولا أيدٍ أو مجاديف. فكيف استطاعت أن تقترب بهذه السرعة من السفينة، إنه لأمر غامض.

- كان في الزجاجة رسالتان. يحدث هذا أحياناً، ما العمل! يجب أن نقتصد ما دام لا يوجد في البحر كثير من الزجاجات الخضراء. فقد يضيف أحدهم رسالته إلى رسالة شخص آخر لإرسالهما في زجاجة واحدة، إذا كان العنوان واحداً، طبعاً.

فتح طاقم «أنطوني والحلوة نون» الرسالة الأولى، كانت تعميماً رسمياً من وزارة البحرية لإبلاغ جميع أطقم السفن في البحر، بأن ثلاث سفن جديدة دخلت في الخدمة وهي: «روميو وجولييت» و«شيفاروف وبناته» و«قاموس مدِّ الأحرف الصوتية». وبطريقة غامضة أسرعت سفينة «أنطوني والحلوة نون» مباشرة باجتياز الأمواج العالية بنشاط أكبر.

أما الرسالة الثانية فلم يستطع أحد أن يفهمها. كانت مكتوبة بخطين مختلفين على وُرَيقةٍ مخططة بمربعات:

ماما

أخ

إلزا

إدوين

عيون

ولم يكن فيها شيء آخر. قلَّب البحارة هذه الورقة بين أيديهم، ثم صنعوا منها طائرة صغيرة، وأطلقوها لتطير في الجو، فحطّت الرسالة بين يدي الأصهب إدوين.

- يجب عليّ أن أعود إلى البيت فوراً، – قال إدوين، وطلب نقله فوراً إلى أول سفينة متجهة إلى هناك.

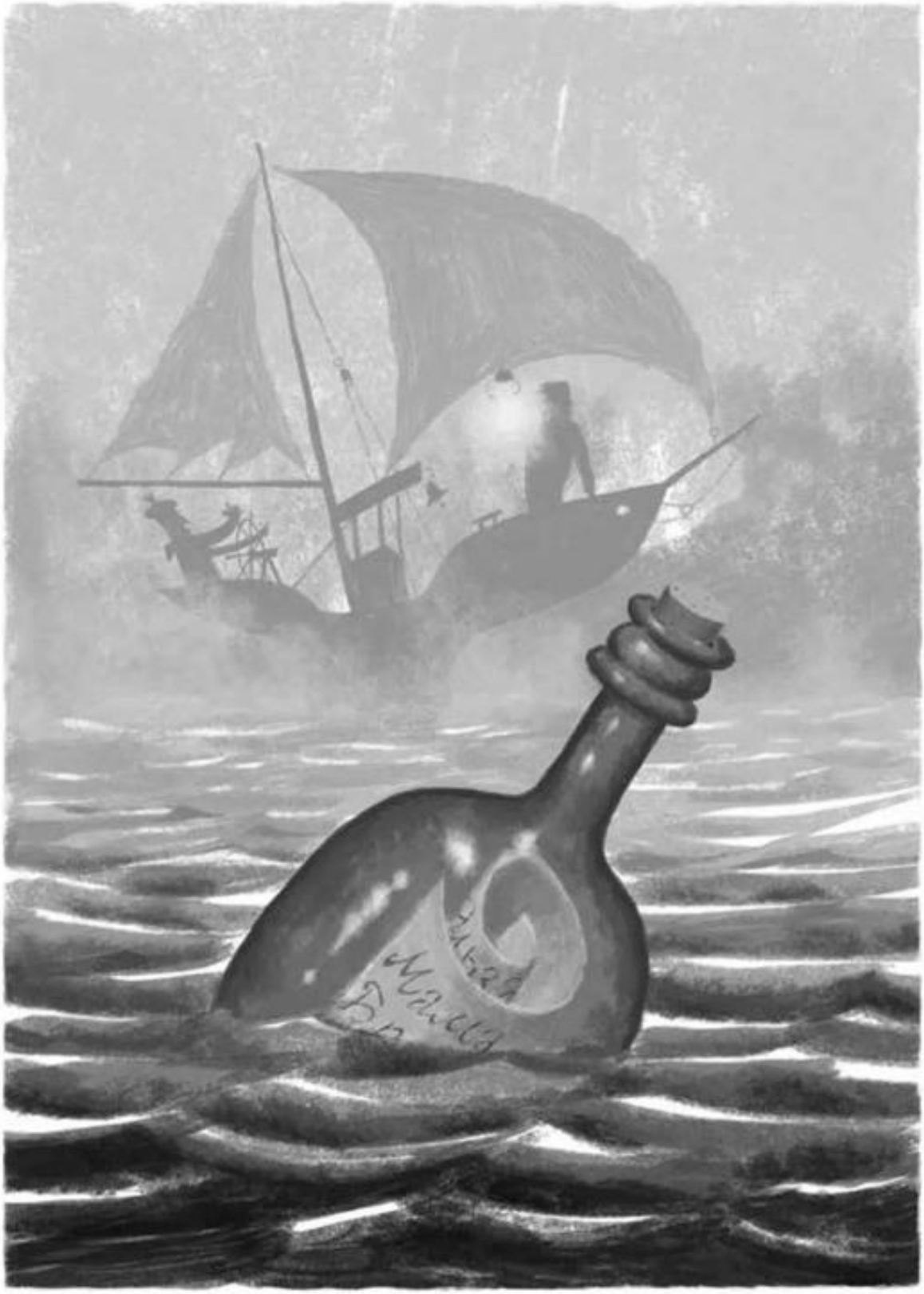

قصة قديمة أخرى

- كانا يتجادلان طول الوقت حول شيء ما، لا أعرف لماذا، - قالت مارتا أثناء تناول الفطور. - ميشا يقول: يجب طلاء المنارة باللون الأبيض. فيردّ عليه إدوين بأنه يمكن الانتظار مدة نصف سنة على الأقل. ميشا تعجبه الجزمة المطاطية، إدوين يرتدي واقي الأحذية. قال ميشا ذات مرة إننا نستطيع أن نسميك نيكا أو ميلا، فغضب إدوين وقال إنه سيسميك إلزا. وهذا ما كان. كان بإمكانه ألا يتوتر، فكلام أخي كان مجرّد اقتراح. لكن إدوين غضب فوراً. طبعاً يمكننا أن نتفهّمه أيضاً. كان ميشا يعيِّره دائماً بأنه أصهب، ما هذه العادة؟ هل يكره أيضاً مَن شعرُه أصهب؟

- بصراحة، نعم، - أجاب بوريا، – لكنه لا يصّر على ذلك، ويقول: «طبعاً، أنا لا أصرّ، ولكني لا أحب الصُّهْب. ولماذا تعلقت به مارتا؟»

- لكن إدوين لم يكن يثق أبداً بمن يبنون المنارات ويصلحونها. يقول إن عدد الغرف قليل دائماً في جميع المنارات. وأثناء عمليات الصيانة لا أحد يستطيع إصلاح مؤشرات الرياح. وفي إحدى المرات جاءنا ميشا، وكان الطقس سيئاً، فأصرّ على إطفاء المصابيح كإجراء وقائي.

- تماماً! - صاح بوريا. – هذا ما أردت قوله بالضبط.

- طبعاً، نحن لم نطفئ المصباح، - أردفت مارتا، - بل وقال إدوين إن الطقس ساء بسبب أخي. لكن هذا ليس صحيحاً! ومن كلمة إلى كلمة أخذا يتعاركان، تارة يكون الغالب إدوين، وتارة ميشا. لا أدري إلامَ كان العراك سينتهي، لولا نشوب العاصفة. فقد أسرع إدوين ليشعل المصباح، لكنه انطفأ لأنه لم يكن هناك وقت لإصلاحه. في ذلك الوقت كان ميشا يساعدنا، وحين احتاج والدكم إلى شيء من القبو، كان الدرج مظلماً، فتعثر بوالدك يا بوريا. لم يكن ينوي رميه إلى أسفل الدرج، ولكن ذلك حدث عن غير قصد. وقد تصافحا بعد ذلك، ولكن في الحقيقة كانت كدمة زرقاء كبيرة تغطّي عين ميشا. ومن يومها لم تصفُ بينهما الأجواء. أكثر ما كان ذلك يظهر في الرسائل، أمّا في الواقع فقد كانا مسرورَين بأن يلتقيا.

- مارتا، - قالت إلزا فجأة، – طبعاً، أنت لا تعرفين أني لا أحب الفطائر. تعالي نسلق بطاطا فقط.

إدوين يعود إلى البيت

- يجب عليّ العودة إلى البيت حالاً، - قال الأصهب إدوين. - أبلِغوا هذا بالراديو إلى أيِّ سفينةً متجهة إلى هناك.

ظلَّ ذئب الشواطئ العجوز يكرر هذه الكلمات ثلاث ساعات متتالية، لكن ربان السفينة لم يفعل. والملاح الذي وعَد إدوين يوماً بتقديم أي مساعدة له مقابل حصوله منه على الخرائط الجافة، اختبأ في إحدى قمرات السفينة، ولم يبلِّغ الخبر لأحد. وكلما اقترب حارس المنارة منهم كانوا سرعان ما يتذكّرون أشياء أخرى ويهربون. (يمكن فهمهم، لأن الاتصال عبر الراديو مع السفن الأخرى ومع الشاطئ كان مقطوعاً من زمان). وحده القبطان ظلّ واقفاً على سطح السفينة يترقّب ظهور اليابسة. لكنها لم تظهر. ولم يلبث أن شرع يتثاءب ويضجر ويبدِّل استناده من رِجلٍ إلى رِجل. وهذا مفهوم أيضاً، فقد كان إدوين واقفاً إلى جانبه يكرّر طول الوقت أنه يجب البحث عن سفينة عابرة، فيما كان البحارة في غرفهم وقمراتهم، واليابسة لا تظهر. وفجأة لمح الربان في الأفق خيال سفينة صغيرة، تبدو شديدة الصغر من بعيد. لا بأس، - خطر للربان، - عندما نقترب سيتبين أن هذا الوعاء الكبير باخرة ضخمة.

إلا أن هذه الباخرة الضخمة لم تكن باخرة إطلاقاً، بل كانت مجرّد يخت متواضع.

- هه، يا من أنتم على متن «كورماتش»! - صرخ القبطان. - أسرعوا وخذوا معكم هذا الراكب! هيّا! أوصلوه إلى المنارة الشمالية!

بينما الربان يعطي أوامره، كان إدوين قد هبط السلم المجدول من حبال عن متن السفينة «أنطوني والحلوة نون»، واليخت يقترب من السفينة، والبحّارة يساعدون إدوين بالوصول إلى سطح اليخت. في هذا الوقت بالذات استاء أحد بحارة «كورماتش»، لأنهم وصلوا للتو من المنارة، وهم محتاجون إلى مزيد من علف الحيوانات الاحتياطي، فيما يَضيع الوقت هنا سُدى. وكيف من دون استياء، ووقتُ مَن في اليخت ثمين دائماً، وكلهم مشغولون بما يعود على الطبيعة الحيّة بالنفع. خاصة وأن قبطان اليخت أمر بتغيير المسار والعودة إلى المنارة. أوّلاً: لأنه كان يعرف إدوين جيداً، وثانياً: كان يعتقد أن مساعدة أيِّ كائن حيّ هي نفعٌ للطبيعة. لعلّه على حقّ.

كم اسماً نحتاج؟

وجّهت إلزا الصهباء سؤالاً إلى مارك فيليب:

- لماذا لكَ أسماء كثيرة!

- تعلمين، - قال الأخ بتبجّح، –هذه قصة طويلة، وقد تملّين من سماعها حتى النهاية.

لعله توقّع أن تعترض إلزا، أو بالعكس، أن توافقه. لكنها ظلت صامتة.

- وهكذا. أمّي و... إدوين...

- أبي. - قالت إلزا.

- أجل، كانا يتجادلان دائماً بسبب اسمي. أمي تقول مارك، وإدوين يقول فيليب. اقترحت أمي اسم ألكساندر، واكتفى إدوين باسم أليك. وهكذا طال استعراضهما الأسماء. وأكثر ما أعجبهما منها: مارك، فيليب، ألكساندر، أليك، فينيمور، غراي، كوستان، هيرمَن، بوشكين سان. ومن جديد مارك وفيليب. وهكذا بقي لي هذا الاسم المركّب. عندئذ توقفت أمي وإدوين عن الجدال. وخاصة بعد ولادتك وانشغالهم باختيار اسم لك. وأخيراً لم يبق في المنارة غيركما. وكوليك سوروكا.

- لا أعرف لماذا نناديه بهذا الاسم.، - قالت إلزا. - نناديه به، وانتهى الأمر. إنه اسم طائر أحمرِ الساقين، يطير ويزقزق شاكياً. أمّا كوليك سوروكا فكثيراً ما يهرُّ.

وهنا تناهى إلى سمعهما من مكان ما في الشارع صوت ذئبْ يهرُّ ويعوي. كان قد مضى كثير من الوقت وهو يركض على الشاطئ، يتمرّغ على العشب ويستنشق الهواء.

أخيراً.. إدوين يعود إلى البيت

وطأت قدما الأصهب إدوين سطح اليخت «كورماتش». كان أيُّ شخص في مكانه سيشعر فوراً بأن الأمور ليست على ما يُرام. حقاً، لقد تغير شيء ما على اليخت بعد أن رأيناه آخر مرة. ثمة تراخٍ خفيّ، وكسلٌ ملحوظ بالكاد. كان الطاقم مشغولاً بأعماله كما هي عادته. لكنَّ هناك من يذهب ليشرب الشاي أو يتوقّف ساهماً. في الحقيقة، لم ينشأ عن ذلك أيّ تأثير على عملهم، فالعلف جاهز في الوقت المناسب، وحيوانات الشواطئ شَبِعة، وعقرب البوصلة لا يزال يشير الى الشمال، والقبطان متحكِّم بعجَلة القيادة.

انضمّ حديثاً إلى الطاقم بحّار جديد، أطلقوا عليه هنا اسم «ميخا» مشرف الإنارة. فجأة ظهر هذا الشخص، على أحد الشواطئ بين قطعان من عجول البحر، ملتحياً، يرتدي نظارة مكسورة وثياباً مرقّعة. يحمل حقيبة ظهر ضخمة مرقّطة (كثياب الجيش). وقبلوا أن يوصلوه إلى أقرب ميناء كبير.

لم يتردّد ميخا لحظة في فحص وإصلاح كل ما يصادفه في طريقه من مصابيح كهربائية وقناديل وشموع. وكان ينقر على جدران القمرات ويفحصها بسمّاعته الطبّية. أحياناً كان يتناول من حقيبة الظهر قطعة شاش نظيفةً يرتديها ويمشي بها على سطح السفينة متمتماً:

- هناك تآكلٌ في عجلة القيادة، وتلفٌ في ورق الجدران في قمرة الربان... فلنتذكّر... لا بد من صيانة وقائية للمرساة.

في غضون بضعة أيام فكّ الوافد الجديد وركّب جميع مصابيح اليخت، ولفّ بقايا المجداف بشريط لاصق (لماذا؟ فلا فائدة منه، على كل حال. لقد احتفظوا به على السفينة احتراماً لخدماته السابقة)، وخاط جيوباً إضافية على بنطلونات البحارة. وتبيّن في النتيجة، أن ميخا كدّ واشتغل أكثر من الجميع. كان رجلاً مرِحاً، جذّاباً، فأخذ البحّارة يقدّمون له أكواب الشاي والبسكويت ومخلّل الملفوف.

- خذْ، - يقول له أحد البحارة، - لقد كنتَ مشغولاً طول النهار، فلم تأت لتناول الغداء، إليك كأساً من الشاي.

-لا أشرب الشاي بمفردي، - يجيب الوافد ويرشف نصف كأس الشاي. - وخاصة مع مخلل الملفوف. تعال نشرب معاً.

وهكذا لم يعد الطاقم يقضي وقته بالعمل فقط، بل وبشرب الشاي في غير أوقاته، وبالاستمتاع بالغروب.

لم يلحظ إدوين شيئاً من ذلك، كانت روحه توّاقة للرجوع إلى البيت، وكان يتفانى في إعداد علف الحيوانات ليطعمها جميعاً بأسرع وقت، والمضيّ باليخت صوب المنارة.

من دون مصابيح

ذات يوم قال ربان «كورماتش» لإدوين:

- حسناً.. اليوم هو موقفنا الأخير قبل المنارة، يجب علينا أن نطعم الدببة البرية.

- وبعدها إلى البيت؟ - سأل الأصهبُ إدوين ذئبُ البحر.

- سنصل إلى المنارة مساءً.

- أمضى إدوين الصباحَ كلّه بالركض هنا وهناك كمن يطير فرحاً في أرجاء اليخت. كان صوته مسموعاً في كل مكان. فأخذ يسحب أكياس العلف بحماس، ويضرم ناراً قويّة في الموقد، ويغسل القدور والأحواض بهمة عالية، ويحصد الحشائش بحميّة فائقة، حتى لم يبقَ للطاقم إلا أن يوكل إليه جميع المهام ويتفرّج كيف يعمل. كان العلف جاهزاً عندما بدأ اليخت «كورماتش» يقترب شيئاً فشيئاً من موطن الدببة. وعلى مقدمة اليخت كان الأصهب إدوين يثب على ساق واحدة نافدَ الصبر.

أخيراً رستِ السفينة على الشاطئ، وبدأ الطاقم بإخراج الأحواض وملئها بالعلف. وأخيراً تبيّن أن هناك كمية من العلف كبيرة جداً.

- فلنذهب إلى صخرة النسر، - قال الربان، - لقد ظهرت هناك ذئبة جديدة، فلنطعمْها. إن عندنا من العلف ما يكفي.

- ليس عندنا الكثير، - صرخ إدوين وراح يكوّم العلف. - ما من داعٍ للذهاب إلى صخرة النسر.

يا لَإدوين المسكين! لم يكن يعلم أنه يعيش طول حياته بجوار صخرة النسر.

- يجب أن نوقفه، - قال كبير البيطريين بوجهٍ شاحب. - لا يجوز إتخام الدببة بالطعام، لأنها ستزداد شراسة.

- كلا، كلا، لا داعي للذهاب إلى أي مكان، - تمتم الأصهب إدوين. وشعر فجأة بأن قدميه تنفصلان عن الأرض، وياقته عن سترته. كان هذا ميخا وقد قرر أن يهزّ ذئب الشواطئ العجوز قليلاً، ولكنه أخطأ الحساب وألحقَ بسترته الضرر.

- اعذرني يا إدوين، - قال ميخا، وأعاده إلى الأرض.

لكن حارس المنارة ما تعوّد أن يرفعه أحد عن الأرض.

- كابورياك؟! - تعجّب إدوين. - أنت هنا إذاً!

وفي هذه اللحظة تلقى ميخائيل بوريسوفيتش كابورياك (أجل، كان هو بذاته) ضربة على رقبته من إدوين.

لم يكن كابورياك يحب أن يُضرب من دون سبب، وردّ بلكمة على عين إدوين. فدفعه إدوين. وحين سقط ميخائيل بوريسوفيتش أمسك برِجلَي إدوين وسقط الاثنان كلاهما على الأرض. وبدأ العراك.

- ستعاقَبان بالجلوس في قسم الشحن في آخر اليخت، وإلقاء العلف لما في البحر من حيوانات، - قال القبطان بعد تفريقهما. - ولا تحلما بأيّ استراحات لشرب الشاي، بأيِّ إبَرٍ وخيطان، حتّى ولا بأيّ مصابيح!

من عطّل الخفاش

في البداية جلس ذئب البحر والوافد الجديد وكلٌّ منهما يدير ظهره للآخر حزيناً يغرف العلف بملعقته ويلقي به في الماء. كان إدوين يفكر كيف سيظهر بهذه الهيئة في البيت. وكان كابورياك الأب يحلم بسحب إبرة وخيط من حقيبة الظهر ليرقّع ثيابه. لكن الربان منع حتّى مجرد التفكير بأي شيء آخر سوى إطعام حيوانات البحر.

اقترب «كورماتش» في الظلام من صخرة النسر عند حلول الظلام. يعرف البحارة كلّهم أنه خيرٌ لهم ألا يظهروا في هذه الأماكن ليلاً، وإذا وجدوا أنفسهم في هذا الوضع فليبتعدوا عن الشاطئ قدْر المستطاع. لكن شدة استياء الربان من سلوك إدوين وكابورياك أنستْه ذلك، فقاد يخته قريباً جداً من الشاطئ. وعلى الرغم من كثرة العلف الذي ألقوه في الماء، ظلّ عندهم كمية وافرة منه، فقرر الطاقم تقديمها للذئبة.

- هيّا، فليُشعل أحدكم الخفاش! - أمر الربان.

الخفّاش اسمٌ يُطلق على منارة السفينة. قد لا يكون نوره ساطعاً، ولكنه كافٍ لمنع وقوع حوادث.

- ما بِكم، أين الضوء؟ أشعِلوا الضوء! - صرخ الربان.

- في الحقيقة، المصباح عاطلٌ، أيها القبطان، - نطق مؤخّرُ السفينة بصوت ميخائيل بوريسوفيتش، - لقد فككته، ولم يتسنَّ لي أن أُرَكِّبه قبل أن نقترب من الشاطئ ونبدأ بإطعام الدببة، ثم...

يذكر الجميع ما حدث بعد ذلك، وعموماً بات واضحاً أن منارة اليخت عاطلة. ولم يكن أحدٌ يعلم ما العمل الآن. لسوء الحظ كانت السماء ملبدة بالغيوم لا تسمح حتى بظهور القمر. بالطبع، كان يمكن إشعال الشموع، ولكن ما الفائدة منها؟

كانت الأمواج تتلاطم على صخور الشاطئ، تشدّ اليخت إليها.

- الآن سيتضرر أسفل اليخت، - قال أحد البحارة.

لكن الأمور كانت أسوأ من ذلك بكثير. إن ما حدث لم يكن مجرّد احتكاك أسفل

اليخت بالصخور، بل لقد تعطلت عجَلة القيادة أيضاً، وسقط شيء ما في غرفة القيادة بقوة أسفر عن تسرب الماء إلى اليخت من مكان لم يسمح الظلام بمعرفته.

- سأصلح هذا العطل، - قال الوافد.

لكن الأسوأ هو أن حيوانات البحر كانت منذ منتصف النهار تتبع اليخت مهتدية بما يُلقى إليها من طعام. لم ينتبه أحدٌ إلى ذلك في النهار، ومع اشتداد الظلمة بات مسموعاً صوت حركة تلك الحيوانات قرب اليخت.

«إنها ستأكلنا الآن»، - جال في خاطر القبطان فأمر:

- الجميع إلى اليابسة!

كان باقياً عليهم أن يجتازوا نحو مئة متر في الماء الضحل. لكن البحارة شاهدوا على مشارف الغابة عدة أزواج من العيون البرّاقة. إنها عيون الدببة البرية وقد أتخِمت فهاجت. كانت طول الوقت تتعقّب «كورماتش» على الشاطئ. «كلما أكلتَ أكتر، زادت شهيّتك!»، ذلك هو المبدأ الذي تتبعه.

- نحن بحاجة إلى نار، - قال كابورياك بصوت منخفض، وشرع يبحث عن علبة كبريت في حقيبة الظهر.

- إدوين، لماذا مصباحك لا يشتغل؟ - سأله القبطان.

ولكن بماذا يستطيع ذئب الشواطئ العجوز أن يجيب؟

المنارة تضيء من جديد

كان الذئب كوليك سوروكا يركض تحت الشبابيك، يتمرّغ على العشب، يشم الهواء ويئن. في البداية كان أنيناً خافتاً، ثم راح يعوي بأعلى صوته. كان يعوي جاثياً كمن يتوسّل أن يُطلَّ القمر. ولعلّ هذا بالضبط ما كان يريده. لا أحد يعرف بماذا تفكر الذئاب، وحتى إلزا لم تستطِع أن تتكهن بذلك، ألا تذكرون؟

ما لبث أن أحاط به الجميع: إلزا، بوريا، كابورياك، مارتا، ومارك فيليب.

- لا بأس عليك، لا تبكِ. - عانقته الفتاة وداعبت رأسه. كانت تريد أن تعطي الذئب حَبَّـتها من السكاكر، لكنه لم يقبلْها، واستمر بالعواء. كان يبتعد راكضاً ثم يلتفت ويعود من جديد.

يريدنا أن نلحق به! - فهم مارك فيليب قصده. – هيّا بنا، لقد حدث شيء ما هناك.

- لكنّ هناك ظلاماً. - همست إلزا بشيء من الخوف، وتبعت الفوانيس والشموع.

- لماذا لم تشعلوا مصباح المنارة؟ - سألت مارتا. - أهو إجراء وقائي مرة أخرى؟

- انتظري قليلاً، - قال بوريا، وأسرع لينير المصباح.

لم يلبث مصباح المنارة أن أضاء، وسارت المجموعة بحماس صوب الغابة مزوّدة بالفوانيس والمشاعل والعصيّ. كان خوفهم يزداد كلما توغّلوا في الغابة ومعهم الذئب كوليك سوروكا وقد اكتفى بالعواء والأنين.

تباطأت خطواتهم، ولكنهم ظلّوا يسيرون. كان الخوف يبلغ بإلزا أحياناً مبلغاً يجعلها ترغب بأن تدير ظهرها وتركض عائدة إلى البيت حيث كانت المنارة تضيء. ولكنها نظرت إلى المسكين كوليك سوروكا الذي وقف الشعر على جسمه، ورغم ذلك استمر بالجري في مقدمة الجميع ولم يهرب. من كان يعرف أن الغابة مخيفة إلى هذه الدرجة في الليل؟ ولكي تتغلب إلزا على خوفها، لم تنتبه كيف أمسكت بيدَي مارتا ومارك فيليب اللذين كان بادياً عليهما الخوف.

لعلّ بوريا كابورياك وحدَه ظلَّ محتفظاً بشجاعته. كان يحمل الشعلة بيد، وحقيبة الإسعاف بيده الأخرى وهو يستذكر قواعد الإسعافات الأولية. كان هذا

أهمَّ من كل شيء سواه.

كوليك سوروكا يتدبّر مصيره

كان أفراد طاقم «كورماتش» واقفين في البحر ليلاً والماء يبلغ ركبهم، تسبح بالقرب منهم حيوانات البحر، وعلى الشاطئ تتربّص بهم الدببة البرية. لم يكن في أيدي البحارة شيء للدفاع عن النفس، فيما حيوانات البحر تزداد اقتراباً منهم، وشرعت الدببة تدخل الماء. اشتعل ضوء المنارة وجعل الجميع الآن ظاهرين.

«من سيكون السبّاق فينقضّ علينا، هؤلاء أم أولئك؟ من سيأكلنا؟» - كان يمكن لأي شخص في مكان هؤلاء البحارة أن يطرح على نفسه هذا السؤال. لكن طاقم اليخت كان مشغولاً دائماً بعمله، ولم يكن معتاداً على الانشغال بهذه الأفكار الفارغة. لقد كانوا في هذه اللحظات الرهيبة يفكّرون بوداع أهاليهم وتلك القضية التي كانوا مخلصين لها في أعماق أرواحهم.

فجأة وثبت من قلب الغابة ذئبةٌ، وأنشبت أنيابها في رقبة أحد الدببة، وبدأت المعركة. وانقضَّ ذئب من الجهة الأخرى وانخرط أيضاً في قتال الدببة البرية. فاجتمع الناس وأخذوا يلوِّحون بمشاعلهم أمام وجوه الحيوانات إلى أن ولّت هاربة كلّها أخيراً.

- بابا! - صرخت إلزا عندما خرج طاقم اليخت كاملاً إلى الشاطئ.

- إدوين! - صاح مارك فيليب.

- حبيبي! - تنهّدت مارتا.

- إني محتاج لضماد! - هتف بوريا كابورياك بصوت أقرب إلى البكاء. - بابا!

كان يحاول إيقاف نزيف الذئبة، بينما راح كوليك سوروكا يلعق لها جروحها الأخرى.

- انتظرني لحظة، - قال كابورياك الأب، وبدأ يبحث في حقيبة الظهر المرقّطة.

وبينما هم يضمّدون جراح الذئبة وكوليك سوروكا، كانت إلزا، ومارك فيليب،

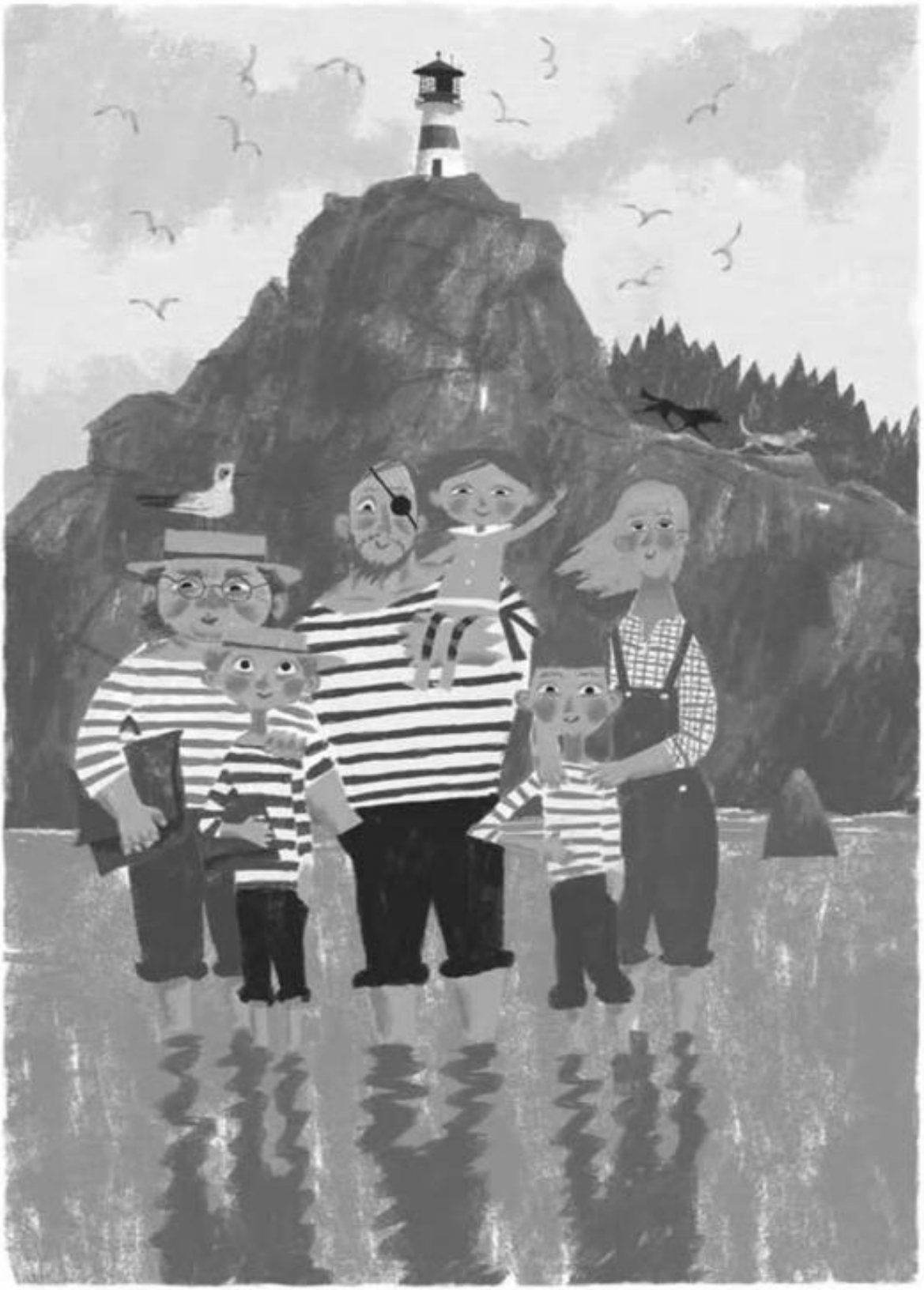

ومارتا لا يحيدون بأنظارهم لحظة عن الأصهب إدوين. ثم خيّم على الأربعة صمت مطبِق.

- انظروا، - قال بوريا. – إن الذئبة تغادرنا.

حقّاً، لقد نهضت الذئبة ومشت نحو الغابة على مهل. فركض كوليك سوروكا خلفها. لكنه رجع ونظر في عينَي إلزا، ولعق يديها، ثم لحق بالذئبة من جديد. وبعد دقيقتين عاد ثانية واندسّ بين ركبتي إدوين.

- اذهب، يا كوليك سوروكا، فقد آن لك أن تتدبّر مصيرك. شكراً لك! - قال له إدوين.

- عانقت إلزا الذئب.

- اذهب إليها، - همست الفتاة مودِّعة، - إنّي أحبك. نحن بانتظار زيارتكما.

سرعان ما اختفى كوليك سوروكا في الغابة. وعاد الصمت وخيَّم من جديد. وأخيراً قالت إلزا:

- بابا، هل هذه عُصابة؟ ماذا أصاب عينك؟

- هذا سيمرُّ بعد أسبوعين، ـ- قال واحدٌ من الثنائي كابورياك.

- ببساطة، اصطدمت بشيء ما، - ابتسم إدوين وعانقهم الثلاثة معاً: إلزا، ومارتا، ومارك فيليب. - إلزا، هذه أمُّك.

- إنها أمّي، - أكّدت البنت.

- وهذا أخوك.

- إنه أخي، - وافقت إلزا.

- هناك المنارة تضيء، - أردف إدوين. - افتحي عينيك جيّداً.

1. نوعٌ قاسٍ من الأجبان الإيطالية. - م ↑

2. جذوع أشجار مربوطة على شكل لوح يطفو على الماء. - م. ↑

3. عند الروس يُعّدَّ ابناء وبنات العم والعمّة والخال والخالة إخوة من الدرجة الثانية. - م. ↑

Table of Contents

Start